البطريرك هرقل ودوره في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية (١١٨٠-١١٩٠م)

إعداد

دكتور/ عز العرب أحمد سليمان

مدرس تاريخ العصور الوسطي

بكلية الآداب جامعة أسيوط

مقدمة:

يتناول هذا البحث بالدراسة الدور الذي قام به البطريرك هرقل في تاريخ مملكة بيت المقدس في تلك الحقبة الممتدة من ١١٨٠ حتى ١١٩٠م، ومدى تأثير هذه السياسة على مستقبل مملكة بيت المقدس الصليبية وعلاقتها بالممالك والإمارات الصليبية ببلاد الشام.

وتتمثل أهمية الموضوع في ثراء الفترة التي تولى فيها هرقل بطريركية بيت المقدس من أحداث سياسية كبيرة كان لها دور مؤثر في مستقبل المملكة التي كانت تعاني من الضعف والانحلال في تلك الفترة، وهي التي جعلت له ميزة عن غيره من البطاركة الذين تولوا بطريركية بيت المقدس من قبل.

وكانت هناك عدة صعوبات واجهت الباحث عند تصديه لمثل هذا الموضوع منها، ثراء تلك الفترة وتداخلها في العديد من الجوانب وخاصة الجانب السياسي والذي يتضمن علاقة المملكة بالجانب الإسلامي ومعارك الفر والكر بينهما، وكذلك المعاهدات السلمية بين الطرفين، إلي أن وقعت معركة حطين الشهيرة وما تطلب بعدها من الاتصال بالغرب الأوربي طلباً للمساعدة، كل هذه الجوانب كان لا بد من دراستها بتعمق وتحليل لكي نصل إلي الدور الحقيقي الذي أسهمت به البطريركية في عهد هرقل.

ويتعرض البحث لعدة عناصر أساسية منها: أحوال المملكة الصليبية قبيل تولية هرقل البطريركية، ثم دراسة نشأة هرقل وحياته وتعليمه، وأهم الأدوار التي قام بها قبل توليته ذلك المنصب، مروراً بتوليته البطريركية وموقف البابوية من طريقة اختياره، ورؤية المؤرخين المعاصرين له، فضلاً عن تحليلنا لموقف وليم الصوري منه، والأدوار التي قام بها ونشاطه داخل المملكة وخارجها، ومحاولاته إنقاذ المملكة الصليبية من الانهيار والسقوط، ومحاولاته الخاصة للحيلولة دون سقوط المدينة المقدسة في يد صلاح الدين، وأنهيت حديثي بالإشارة إلي دوره بعد سقوط المملكة حتى وفاته ١١٩٠م. وقد اختتمت الدراسة بأبرز ما توصلت إليه من نتائج.

والواقع أنه من الضروري بمكان أن نتناول حظ البطريرك هرقل من الدراسات السابقة، وفي هذا المجال أود أن أنوه إلي أنه لا توجد دراسة متخصصة عنه، سوي تلك التي أعدها المؤرخ بنجامين كيدار Benjamin Z. Kedar الأستاذ بجامعة القدس العبرية بعنوان "The Patriarch Eraclius", والمنشورة ضمن كتاب "Outremer" وهو كتاب تذكاري أعد لتكريم المؤرخ يوشع براور Joshua Prawer سنة ١٩٨٢م، وهي الدراسة التي أفادت الباحث كثيراً.

والله ولي التوفيق،

الباحث

ـ أحوال مملكة بيت المقدس قبيل تولية هرقل البطريركية:

توفي ملك بيت المقدس الصليبي عموري الأول[١] (١١٦٣ــ ١١٧٤م)، وكان ابنه بلدوين الرابع[٢] (١١٧٤- ١١٨٣م) غلاماً صغيراً ومصاباً بالجذام[٣] قد تزوج ملكا للقدس

---

(١) عموري الأول حكم مملكة بيت المقدس بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث سنة ١١٦٣م، وقد شغل منصب كونت "يافا" ، كما منحه أخوه بلدوين الثالث عسقلان، وتزوج من ابنة كونت الرها جوسلين الثاني، والتي تدعي آجنيس كورتيناي Agnes de Courtney، ثم طلقها بسبب معارضة بطريرك القدس؛ لوجود قرابة بين الملك وزوجته من الدرجةالرابعة تحرم زواجهما.أنجب من زوجته الأولى ابنة اسماها سيبيلا Sibylle، وولد هو بلدوين الرابع، وكان عموري خصماً شديداً لحرية الكنائس، كما كان جشعاً بشكل لا يليق بملك. للمزيد انظر وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٢٠٠٠م)، ج٤، ص٢٣-٢٤، مؤرخ مجهول: ذيل وليم الصوري، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ٢٠٠٢م)، ص٢١- ٢٢، وأنظر

"The Titular Nobility of the Latin East: The Case of Agnes of Courtenay" In Crusaders, Cathars and the Holy Places(Ed.) by Bernard Hamilton, (London, 2000) PP.197- 201.

(٢) بلدوين الرابع وصفته بعض المصادر بأنه كان بهي الطلعة، حاد الذكاء، قوي الذاكرة، وحافظا للجميل، وكان شديد الشبه بأبيه في سماته وصفاته سواء في طريقة سيره أو نبرات الصوت، وإن تلجلج لسانه في بعض الأحيان، ولكنه كان تقياً ورعا صاحب قدرة كبيرة علي التحمل وشجاعة وحكمة بالغة . للمزيد انظر. وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤. ص١٧٥؛ روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، كتاب المجموعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار،(دمشق، ٢٠٠٠م)، ج٣٩،ص٣١٠. ؛

Ernoul: Le Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier (ed.) Mas Latrie (Paris,1871), P.32;

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية،ج٤، ط.القاهرة (١٩٩٥م)، ص١٧٤-١٧٥؛

Archer & Kingsford: The Crusades " The story of the Latin Kingdom of Jerusalem (London,1902),P.250.

الجذام في الطب: مرض مزمن يؤثر على الجهاز العصبي الطرفي، كما يؤثر على الجلد، والأغشية المخاطية، والجزء العلوي من الجهاز التنفسي والحبل الشوكي، كما يؤثر على الأعضاء التناسلية مسبباً العقم، وهذا المرض غير معدٍ إلا في حالات نادرة جداً، وقد قسم الأطباء هذا المرض إلى أربع درجات حسب درجة المناعة. انظر:

وبسبب صغر سنه[١] - حيث كان يبلغ الثالثة عشر عاما . وعهد إلى أحد أقاربه (ميلون دي بلانسي)[٢] Milon de Plancy بمسئولية إدارة المملكة والوصاية عليه، وقد أثبت جدارة في القيام بأعباء الحكومة نيابة عن الملك القاصر بلدوين الرابع[٣].

وبالرغم من ذلك فقد شهدت فترة وصايته نزاعات بينه وبين كبار نبلاء المملكة من جهة، ومقدمي الاسبتارية والداوية[٤] من جهة أخري، وكانت هذه المتاعب الداخلية سببا في

Zenab El Gothamy and Abdalla M. Atti: "Leprosy ", in Fundamentals of Dermatology, Andrology, Sexology and Sexually Transmitted Diseases. Cairo, 2004, pp. 28-34.

(١) لقد حددت قوانين المملكة الصليبية سن تولي السلطة الملكية بخمس عشرة سنة. انظر: Jean d'Ibelin: Livre des Assiess, Ed. A. Beugnot, In R.H.C., Occ., Lois I, P. 260.

(٢) ميلون دي بلانسي: من إقليم شمبانيا بفرنسا. كانت تربطه صلة قرابة بالملك عموري الأول؛ حيث كان ابن العم الثالث له، فضلاً عن علاقة الصداقة الحميمة به، تزوج من استيفاني دي ميللي Stephanie de Milly أرملة همفري صاحب تورون، وصار بفضل هذه الزيجة المتصرف في كل الأراضي الواقعة وراء الأردن(مونتريال أو الشوبك) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية،ج٤،ص ١٠٨ــ ١٠٩؛ Grousset R., Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem , (Paris 1934-6),II,P.611; "Miles of Plancy and the Fief of Beirut "In Crusaders, Cathars and the Holy Places, (Ed.) by Bernard Hamilton, PP.136- 137.

(٣) Hamilton(B.): The Leper King and His Heirs, Baldwin IV and the Crusader Kingdom of Jerusalem, (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), p.85.

(٤) هيئة الفرسان الاسبتارية Hospitallers، تأسست سنة ١٠٥٠م، وقد اهتم هؤلاء الفرسان في بادئ الأمر بأمر الفقراء من الحجاج إلى الأراضي المقدسة ثم تحولوا من =الجماعات العسكرية والتي من أهم قوانينها أن القتال في سبيل الرب يُعد نشاطاً مكملاً للمهمة الأخوية، وقد استحوذوا على الكثير من الثروات في العديد من البلدان.

عجز الملك بلدوين الرابع عن متابعة نشاطه الحربي، وعدم استغلاله هجوم الأسطول النورماني علي الإسكندرية في يوليو ١١٧٤م، تنفيذاً لاتفاق مع مملكة بيت المقدس للقيام بحملة مشتركة علي مصر[١]. لذلك استغل ريموند الثالث صاحب طرابلس[٢] (١١٤٦-١١٨٧م) ذلك وطلب الوصاية علي بلدوين الرابع بديلاً عن ميلون دي بلانسي؛ لقرابته ولمركزه وغناه، فتمت الموافقة بواسطة نبلاء المملكة ورجال الكنيسة على تعيين ريموند الثالث وصياً على المملكة[٣]،بعد اغتيال ميلون في مدينة عكا[٤].

وفي فترة وصاية ريموند الثالث التي امتدت (١١٧٤-١١٧٦م) بدأت تواجه مملكة بيت المقدس الصليبية مشكلة أخري، وهي مشكلة زيادة سلطة الأحزاب السياسية فيها، الأمر الذي أدي إلي الصراع علي السلطة والوصاية علي العرش ، قام علي إثر ذلك صراع بين حزبين من نبلاء المملكة: الأول وهو حزب البارونات الوطنيين[٥] Native Barons ، أما ثاني

Hume: Medical Work Of The Knights Hospitallers Of sant John Of Jerusalem, Insitute Of The History Of Medicine Of The John Hopkins University (1940) PP.14, 20

جوناثان ريلي سميث: الإستبارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص (١٠٥٠ - ١٣١٠م) ت صبحي الجابي، دمشق (١٩٨٤م) ، ص٥٨. ٦٢.

(١) Wiruszowski: "The Norman Kingdom Of Sicily and the Crusades", In Setton: The History of the Crusades, Vol,II,P.32.

(٢) ريموند الثالث: هو ابن ريموند الثاني كونت طرابلس، وابن هيدرينا Hederna ابنة بلدوين الثاني ثاني ملوك بيت المقدس، وبالتالي يكون ريموند الثالث ابن خالة الملك بلدوين الرابع. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص١٨١- ١٨٢؛ Conder: The Latine Kingdom of Jerusalem, P.135.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤،ص١٧٧-١٧٨، Baldwin: Raymond III of Tripolis and The fall of Jerusalem, Amsterdam (1969), PP.25-26.

(٤) وليم الصوري: المصدر السابق، ج٤،ص ١٢٩ Miles of Plancy and the Fief of Beirut, PP. 140 -143.

(٥) حزب الوطنيين يتألف من قدامي الصليبيين، وكان يضم ريموند الثالث كونت طرابلس، وكونستابل المملكة همفري الثاني من تورون، وباليان الابليني سيد الرملة، وأخوه بلدوين وريناله سيد صيدا، وكذلك الملكة

الأحزاب التي دخلت حلبة الصراع في المملكة فهو حزب القادمين الجدد من الغرب[١] New Comers، وقد حظي كل حزب بدعم بعض الأعيان والهيئات سواء الحكومية أو الدينية[٢]، لقد كان وجود هذين الحزبين المتصارعين زمن بلدوين الرابع مثار قلق وخوف داخل المملكة الصليبية لاسيما وأن كل حزب كانت له سياسته الخاصة التي تخدم مصالحه الخاصة دون النظر إلي صالح المملكة الصليبية[٣].وإزاء هذه الأحداث عجز ريموند علي فرض سيطرته ونفوذه علي بقية أقرانه [٤]. ومما زاد من سوء أحوال المملكة الداخلية بخلاف الانقسامات السياسية، ظهور النزعات بين الأسرة الواحدة؛ الأمر الذي جعل الملك يزداد اقتراباً من بيت كورتناي، فقام بتعيين خاله جوسلين الثالث صنجيلاً للمملكة، وعادت أمه

=ماريا كومنين أرملة الملك عموري الثاني، وهيئة الاسبتارية. أنظر رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية،ت نور الدين خليل، مكتبة الشروق(١٩٩٦م) ج٢، ص٤٦٣.

(١) حزب القادمين الجدد إلي المملكة، وكان يتألف من الأمراء الصليبيين الذين قدموا من الغرب. وعلي رأسهم المغامر رينو دي شاتيون، وجوسلين الثالث كورتناي كونت الرها، وأخته الكونتيسة آجنيس أرملة عموري الأول، وهيئة فرسان الداوية. رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢،ص٤٦٣؛

Baldwin: " The Decline and Fall of the Jerusalem" In Setton: A History of the Crusades,(London,1969),Vol, I,P.592.

(٢) عبد الحفيظ محمد علي: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس، وأثرها علي تاريخ الحركة الصليبية(١١٣١- ١١٨٧م) دار النهضة العربية(القاهرة،١٩٨٤م) ص١٠٠.

(٣) قرر حزب البارونات الوطنيين تبني سياسة الدفاع عن المملكة والإبقاء علي سياسة التفاهم مع المسلمين، وخاصة في تلك الفترة المضطربة من حياة الصليبيين، وكانت لهذا الحزب مبرراته التي حملته علي هذه السياسة، وخاصة أن أعضاء هذا الحزب كانوا من النبلاء الإقطاعيين الذين حازوا إقطاعيات كبيرة وثروات متعددة، وصاروا أفضل من أوضاع أقرانهم في الحزب الآخر؛ لذلك ركنوا إلي حياة الدعة والترف، وعلي النقيض من هذا كان حزب القادمين الجدد الذين اتبعوا سياسة الهجوم وإظهار الرغبة في العمل العدائي ضد المسلمين، ودوافعهم في ذلك هو امتلاك الأراضي والضياع.أنظر =: وليم الصوري: الحروب الصليبية،ج٤،ص١٨٦، رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢،ص٤٦٣- ٦٤؛

Baldwin: The Decline and Fall of the Jerusalem, Vol.I,PP602-603

(٤)Stevenson(W.B.): The Crusaders in the East (Cambridge, 1907), P.213.

الكونتيسة آجنيس[١] إلي البلاط، فكان نفوذها بالغ الخطورة، وجالباً للكوارث"؛ فقد أخذت تتدخل في توجيه سياسة المملكة، وكذلك في شئون بلدوين الرابع وأخته سيبيلا، فاستمع لها بلدوين، أما سيبيلا فوقعت . أيضا . تحت سيطرتها[٢]. وعندما بلغ بلدوين سن الرشد في عام ١١٧٦م ، وانفرد بالحكم دون وصاية، وتمكن حتى عام ١١٨٢م من إدارة شئون المملكة بنفسه بنجاح حتى عُدت تلك السنوات أزهى فترات حكمه[٣]. فعلي الرغم من شدة مرضه، فإنه ظل يقاوم بثبات، وعلي الجانب الحربي تمكن من تحقيق نصر علي صلاح الدين الأيوبي عند مونت جيسارد Mont Gisart (تل الصافية)[٤] أواخر نوفمبر ١١٧٧م (٥٧٣هـ)[١].

---

(١) تزوجت آجنيس من رينالد سيد مرعش قبل زواجها من عموري والد الملك بلدوين الرابع، ثم توجهت إلي إمارة أنطاكية برفقة والدتها وأخيها جوسلين الثالث، وظلت هناك حتى سنة ١١٥٧م عندما تزوجت من عموري الأول. وقد رفض أملريك بطريرك بيت المقدس تتويج عموري الأول ملكا علي بيت المقدس، بحجة أن زواجه من آجنيس يعد تحدياً لقوانين الكنيسة، وكان الحل في انفصال عموري عن آجنيس، ووافق عموري علي الانفصال عن آجنيس وتم تتويجه ملكا علي بيت المقدس.انظر، Ernoul: Le Chronique,P.17; L`Estoire de Eracles, In R.H.C.., Occ., Vol, II, PP.5-7; Mayer: The Beginning of King Amalaric of Jerusalem, in The Horns of Hattin (Yad Izhak Ben Zvi and Variorum 1992), PP. 121- 125. ، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٣-٢٥؛ مجهول: ذيل وليم الصوري، ص ٢١-٢٢.

(٢) Mayer: Op.Cit., P.123. Barker D.: "Women in the Crusader States: The Queens of Jerusalem 1100-1190)", In: Crusaders, =Cathars and the Holy Places, ed. By Hamilton, Ashgate Publishing 2000, p. 164 ، رانسيمان: المرجع السابق،ج٢،ص٦٥٥-٦٥٦.

(٣) La Monte, J.L, Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, Cambridge, The Mediaeval Academy of America, (1932, reprint: New York, Kraus 1970).PP.28- 29.

(٤) تل الصافية: حصن من أعمال فلسطين يقع جنوب شرق الرملة، والي الشمال الغربي من الخليل علي الطريق بين

ومن مسائل التصدع الداخلي للمملكة الصليبية مسألة زواج أخت الملك بلدوين سيبيلا من جاي لوزجنيان [٢] الذي وصل مؤخرا من الغرب الأوربي برفقة أخيه أملريك، الذي حظي بعطف الكونتيسة آجنيس (أم الملك) [٣]. وقد تم هذا الزواج في ربيع ١١٨٠م.[١] على الرغم

=غزة وفلسطين. كما تبعد عن عسقلان سبعة أميال. وترتفع مائتين واثني عشر قدماً عن سطح البحر. وتطلق عليها

المراجع الأجنبية Blanch garde أي الحصن الأبيض. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان. دار الفكر. بيروت.

ب-ت. ج٢. ص٤٢، مصطفي مراد الدباغ: بلادنا فلسطين. ط. بيروت ١٩٦٥-١٩٧٦م. ج٥. ق٢. ص٣٠٧؛

Smail (R.C.): " Crusaders Castles of the twelfth century" In C.H.J.,Vol.10,No2(1951)P.140

(١) عن أحداث المعركة انظر. البنداري: سنا البرق الشامي. ت. فتحية النبراوي. مكتبة الخانجي. ط.القاهرة (١٩٧٩م). ص١٣٠-١٣١. وليم الصوري: الحروب الصليبية. ج٤. ص٢١٩.

Ernoul: Le Chronique. PP.42-45; King(E.J): The Knights Hospitallers in the Holy Land (London. Methuen 1931).. P. 107

سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين. المؤسسة المصرية للتأليف والنشر (القاهرة. ١٩٦٥) ص ١٢٩-١٣٠.

(٢) جاي لوزنيان بن هيو" دوق أبراشية " بواتييه" في " فرنسا. من أسرة عريقة. قدم إلي القدس مع أخيه أملريك. وقد وصفت المصادر جي بأنه كان ذا وجاهه ووسامة لكنه كان جباناً أحمق . وبعد واحداً من المسئولين عن سقوط بيت المقدس. انظر: Smail: =" The Predicaments of Guy of Lusignan. 1183- 1187,In Outremer.PP.159-172; Sidney Painter:" The Houses of Lusignan and Chatellerault 1150-1250". Spec.. Vol.30, No.3 (1955), PP.374-384.Lamb (H.): The Crusades. P.51.

(٣) ذكر أرنول أنها كانت علي علاقة غير شرعية معه. ولكن الملاحظ أن المؤرخ أرنول تارة يتهمها بأنها علي علاقة بالبطريرك هرقل. وتارة أخري يصفها بأنها متعطشة للرجال. انظر: Ernoul: Op.Cit.. PP.60-61وهنا يدعي بأن لها علاقة بأملريك أخي جاي. ويرجح أحد الباحثين أن سبب هذه العداوة التي يكنها أرنول لآجنيس تعود للموقف المعارض الذي أخذته آجنيس من الكونت بلدوين ابلين. ورفضها تزويجه من ابنتها سيبيلا؛ الأمر الذي أغضب أرنول لأنه ربيب بيت ابلين. انظر أسامة زيد زكي: ملكات

من أن الملك الصليبي لم يكن راضيا عن هذه الزيجة لأخته؛ لأن جاي لم يكن من طراز الرجال الذين يمكن للمملكة الصليبية الاعتماد عليهم في تلك الظروف الصعبة التي تمر بها. لكن الكونتيسة آجنيس تمكنت من إقناع ابنها الملك بمباركة الزواج[٢]. وبزواج جاي لوزجنيان من سيبيلا اكتمل حزب القادمين الجدد، والذي ضم الكونتيسة آجنيس وأخيها جوسلين الثالث. وأملريك شقيق جاي، وقد استطاع هذا الحزب احتواء الملك بلدوين الرابع[٣] كما استغل أعضاؤه تردي حالته الصحية، ونجحوا في إقناعه بالوصاية للعرش إلي جاي لوزجنان. وقبل البارونات ذلك علي كره منهم[٤].

ارتبكت الأمور في المملكة بعد زواج جاي من أخت الملك ووصايته؛ فقد انسحب بلدوين ابلين من مملكة بيت المقدس، وانضم إلي المسلمين؛ الأمر الذي تسبب في الكثير من الأضرار للصليبيين[٥]، كما أزعج هذا الزواج كونت طرابلس وأمير أنطاكية، كما أن العديد

=بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري)، مجلة كلية الآداب-جامعة طنطا. العدد الثامن. يناير ١٩٩٥م،ص٥٢.

(١) Grousset: Histoire des Crusades, Tom.II, PP.688-689; Cahen: La Syrie de Nord, (Paris, 1940), P.426; Baldwin:" The Decline and the fall of the Jerusalem", PP.596-597; Edbury: The Conquest of Jerusalem and the third Crusade' Sources in Translation'(1998), P.150.

(٢) Ernoul: Op.Cit.,PP.60-61, Painter:" The Houses of Lusignan and Chatellerault ,P.377;

(٣) Anonymi Rhenani: Historia et Gesta Ducius Gotfridi,In R.H.C., Occ., T.V.Seconde Partie, P.518; Aube: Baudouin IV de Jerusalem, P.336. وانظر: رانسيمان: المرجع السابق،ج٢،ص٧٠٥؛ عبد الحفيظ =محمد علي: مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية "١١٣١-١١٨٧م". دار النهضة العربية، ط.القاهرة ١٩٨٤م، ص١٢٥.

(٤) Anonymi Rhenani: Op.Cit., T.V. Seconde Partie, P.518; Lamb: The Crusade the Flame of Islam, (New York 1931), P.53.

(٥) Ernoul: Le Chronique,P.60. وليم الصوري: الحروب الصليبية،ج٤،ص٣٣٠.

من نبلاء المملكة قد عارضوا تلك الوصاية، وهذا الأمر أضاف للمملكة انشقاقا جديدا. وليس أدل علي ذلك تعليق وليم الصوري عن وضع المملكة آنذاك بقوله [١]:" لقد تدهور حال البلد إلي درك مهين". وتشير هذه المقولة التي ذكرها وليم الصوري إلي أحوال مملكة بيت المقدس قبيل اعتلاء البطريرك هرقل سدة الكرسي البطريركي في القدس.

- البطريرك هرقل نشأته وحياته:

ولد هرقل Heraclius حوالي عام ١١٢٨م في مدينة جيفادين Gevadan [٢] بفرنسا. وتعني التسمية الشخص ذا الأصول الرفيعة النبيلة، وقد كانت هذه التسمية غير شائعة في ذلك الوقت. وعلى الرغم من ذلك فقد نشأ وعاش هرقل في أسرة متواضعة. وتلقى تعليمه الديني مثل الكثير من أقرانه في ذلك الوقت في إحدى الكاتدرائيات الصغيرة في مقاطعة جيفادين [٣]. ويُذكر أنه تعلق في بداية حياته بحبه الشديد للشعر وخاصة الساخر منه: ففي أثناء دراسته في جامعة بولونيا، وفي قاعات المحاضرات بها التقى هرقل والكثير من الأصدقاء [٤] الذين جمعتهم غريزة حب الشعر، فقد شارك صديقه إتيان تورناى [١] والذي أصبح

---

(١) .وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٣٣٠.

(٢) جيفادين: تقع في الجزء الجنوبي من مقاطعة أوفران الفرنسية، وهي منطقة ذات موقع متميز. وتشمل على الكثير من التلال والجبال والوديان والغابات والأنهار. وتُعد مدينة كليرمونت فيران التاريخية عاصمة الإقليم. كما تحتوى المدينة العديد من القلاع والكنائس التاريخية أيضاً، وأشهر مدنها لى بوى Le Pay. للمزيد انظر:

- Moore (W.G): The Penguin Encyclopedia of Places, (London 1978), pp.65-66.

(٣) Kedar (z.): "Patriarch Eraclius" in Outremed, Studies in the History of the Crusading kingdom of Jerusalem (Jerusalem), 1982, p.184.

(٤) كان من مجموعة أصدقاء الدراسة بجامعة بولونيا إيتان تورناى الذي أصبح أسقف تورناي والكاردينال جريش وايلى ريتشارد بيرى رئيس شمامسة ليزيو وبيير كارفيلى الذي أصبح فيما بعد البابا أوربان الثالث. للمزيد انظر:

Kedar: Ibid, p.184.

فيما بعد أسقفاً لتورناى سنة ١١٧٠م في إعداد وتنظيم بعض المسرحيات الهزلية علي نحو ما تصوره بعض الأساطير القديمة في أسلوب عرضها والتي تشير إلى القرابين المقدمة من الآلهة لمولود كوكب المشترى وزوجته إلهة البانتيون، وهو ما يدل علي سعة آفاقه منذ مراحل تعليمه المتقدم، ثم تنوعت كتاباته بعد تلك المرحلة؛ ليكتب مفصلا عن موقع صلب السيد المسيح، كما عمل في مجال الدعوة الدينية مع رفاقه في مقاطعة بولونيا مقر الدراسة، حتى أن صديقه إتيان رأى أن هرقل سوف تكون وجهته الأراضي المقدسة من شدة تعلقه بها، فيقول: " فليكن حجك مباركا، يكفر عن خطاياك، ويرتقى بك إلى الأعالي" ، وهذا تلميح منه برحيل هرقل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين بعد إتمام دراسته، وتنبؤه بارتقاء المناصب الدينية هناك[٢].

على أية حال، فقد استمر هرقل في الدراسة بجامعة بولونيا في الفترة من ١١٤٥م، وحتى سنة ١١٥٠م ، وربما يكون قد استمر فيها حتى سنة ١١٦٠م، حصل خلالها على درجة علمية عالية في علوم اللاهوت[٣]، وبدأ العمل في المجال الديني في مقاطعة أفرين ومنها توجهه إلى الأراضي المقدسة مثل الكثير من أقرانه للبحث عن فرصة للعمل هناك، حتى أصبح قسيساً ثم واصل ارتقاء المناصب الدينية فتولى منصب رئيس شمامسة بيت المقدس في الفترة ١١٦٩ حتى ١١٧٥م، ثم رئيس أساقفة قيسارية[٤] في الفترة من ١١٧٥ حتى ١١٨٠م. وفى عام ١١٨٠م تم انتخابه بطريركاً لبيت المقدس[١].

---

(١) ولد في الثامن من فبراير سنة ١١٢٨، درس مع هرقل في جامعة بولونيا في ستينيات القرن الثاني عشر، اشتهر في صباه بكتابة الشعر وإقامة المسرحيات الهزلية،وقام بتأليف الرباعية الشعرية، ثم تعمق في دراسة اللاهوت إلي أن تولي أسقفية تورناي ثم أصبح رئيس دير يوفيرت في أورليننز عام ١١٦٧م ثم رئيساً لدير القديسة جنفيفاف في باريس عام ١١٧٦م، وأصبح من كبار علماء اللاهوت. انظر Kedar: Op. Cit, PP. 185- 186.

(٢) Ibid,P.185.

(٣) جامعة بولونيا كانت ناشئة حديثا في تلك الفترة، والمعروف أن الدراسة بالجامعة في القرن الثاني عشر، وفي القرون التي تلته لم تكن علي مستوي فكري متميز. انظر: Kedar: Op.Cit, PP180- 181.

(٤) أسقفية قيسارية هي واحدة من أربعة أبراشيات رئيسية موجودة في مملكة بيت المقدس اللاتينية.

- أهم الأدوار التي قام بها هرقل قبيل توليه البطريركية:

كان الظهور الأول لهرقل على مسرح الأحداث في عام ١١٦٨م في القدس، حيث بدأ منذ هذا التاريخ بروز أعماله علي مسرح الأحداث، ويبدو ذلك بصفة أوضح عام ١١٦٩م عندما تم تعيينه رئيساً لشمامسة بيت المقدس، وقد تمكن بهذه الصفة الوظيفية الجديدة المشاركة في حل بعض النزعات الدينية، فيذكر أنه توسط للوصول إلى اتفاق مُرضٍ بين اثنين من رجال الدين، وهما إيرنارد أسقف ليديا Bernard Of Lydia، والقديس بطرس الرئيس الأسبق للقبر المقدس، حول بعض الأمور الكنسية[٢].

وقد تم تكليف البطريرك هرقل عام ١١٧٢م بمهمة من قِبل الملك عموري الأول وبطريرك بيت المقدس أملريك من نيسلي[٣] إلى روما حيث مقر البابا إسكندر الثالث[٤] Alexander III (١١٥٩-١١٨١م)، وقد تمحورت هذه المهمة الرسمية في محاولة إقناع البابا في العدول عن قراره في عودة جلبرت دى أسالي Gilbert de Assailly إلى منصبه كمقدم لهيئة الفرسان الاستبارية بالقدس، ولكن مهمة هرقل هذه لم تكلل بالنجاح

= انظر Kedar: Op.Cit., P.186.

(١) Ernoul: Op.Cit., P.82.; L'Estoire d'Eracles p.60.
وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٦٠.

(٢) Kedar: Op.Cit., P.186.

(٣) البطريرك أملريك (عموري) من نيسلي تولى البطريركية خلفاً للبطريرك فولشر في نوفمبر ١١٥٧م، وذلك باختيار من الملكة مليسندا؛ لمعرفتها القوية به وصداقتها الراسخة، وقد أرسله عموري الأول على رأس عدة سفارات إلى الإمبراطور فردريك والملك لويس السابع، وهنري الثاني، وكونت الفلاندر وذلك في سنة ١١٦٩م. كما صاحب أملريك الملك عموري في الزحف على الداروم. وظل أملريك بطريركاً نحو عشرين عاماً حتى وفاته في أكتوبر ١١٨٠م.انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٨١ حاشية رقم (١).

(٤) ولد البابا إسكندر سنة ١١٠٠م، ثم تم تعيينه شماسا سنة ١١٥٠م، ثم كاردينالاً سنة ١١٥٢م، ثم مستشاراً سنة ١١٥٣م، حتى تم اختياره لكرسي البابوية في روما في السابع من شهر سبتمبر ١١٥٩م. انظر Kelly: Oxford Dictionary of Popes, (New York 1996), PP. 176, 177.

بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها في الدفاع عن هذه القضية[١]. وفي عام ١١٧٥م أصبح هرقل رئيساً لأساقفة قيسارية، والتي تعد واحدة من الأربع أبراشيات الكبرى في مملكة بيت المقدس الصليبية؛ ففي أكتوبر من سنة ١١٧٨م توجهت بعثة من كبار رجال الدين اللاتين إلى روما لحضور مجمع اللاتيران الثالث[٢]، وقد تألف الوفد الكنسي اللاتيني من وليم الصوري[٣] رئيس أساقفة صور، وهرقل رئيس أساقفة قيسارية، وألبرت Albert أسقف بيت لحم، ورالف Ralph أسقف سبسطية، وجيوشيوس Gucheus أسقف عكا، ورومانوس أسقف طرابلس، وبطرس رئيس المرتلين بالقبر المقدس، ورينالد Renaldus رئيس دير جبل صهيون. وقد تخلف عن الحضور البطريرك أملريك بطريرك القدس، وكُلف بالحضور نيابة عنه رئيس المرتلين بالقبر المقدس، وبذلك أصبح وليم الصوري هو رئيس الوفد المعترف به، وقام

---

(١) Kedar: Op.Cit., P.186.

(٢) مجمع اللاتيران عقد بروما في التاسع والعشرين من مارس ١١٧٩م، حضره نحو ثلاثمائة وعشر أسقف من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا والدانمرك وأيرلندا وأسكتلندا وألمانيا وأسبانيا والممالك الصليبية في الشرق، وقد أقر هذا المجمع سبعة وعشرين تشريفاً كنسياً يتعلق معظمها بانتخاب البابا وأنشطة اليهود والهرطقة وتحريم الإتجار مع المسلمين، ومعاقبة رجال الدين الذين احتفظوا بمحظيات لهم في منازلهم. للمزيد =انظر: Third Lateraun Council (1179) In Catholic Encyclopedia In Medieval Sources book. Com.;

روجر أوف ويندوفر: ورود التاريخ، ضمن كتاب سهيل زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق (٢٠٠٠م) ج٣٩، ٢٩٧ وما بعدها. Kedar: Op.Cit. P. 183.

(٣) وليم الصوري: ولد وعاش بالمملكة اللاتينية، وتلقى تعليمه الأول فيها، ثم ارتحل إلى أوربا حيث قضى نحو عشرين عاماً، أكمل تعليمه في كل من فرنسا وإيطاليا، وبعد عودته للمملكة عمل في خدمة الملك عموري الأول رئيساً لشمامسة كنيسة صور، ثم عينه عموري مربيا لابنه بلدوين الرابع، ثم أصبح مستشاراً للمملكة منذ عام ١١٧٤م، ورئيساً لأساقفة صور عام ١١٧٥م.وللمزيد انظر: ميشيل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ت بشير السباعي ، ج١، عين للدراسات (٢٠٠٣م) ص ١٨٠- ١٨١؛ السيد الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية، ط١، القاهرة (١٩٦٢م)، ص١٠١- ١٠٣؛ عمر كمال توفيق: المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، العدد ٢١، سنة ١٩٦٧، ص١٨١- ١٩٠؛ بيرل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، ت قاسم عبده قاسم، القاهرة (١٩٨٤م)، ص ١٤٢- ١٤٣.

بدور بارز في مداولات المجلس، وعلى الرغم من أن البابا ألكسندر الثالث طلب منه تنفيذ مهمة خاصة له لدى البلاط البيزنطي، حيث مكث هناك مدة سبعة أشهر بناءً على أوامر الإمبراطور البيزنطي، والذي لم يسمح له بالرحيل إلا بعد تنفيذ مهمة أخرى شديدة الأهمية في أنطاكية[١]. لذلك فقد تملك وليم الصوري شعوراً أقرب ما يكون لليقين أن خبرته ومعرفته بالشئون الدولية، وعلاقات الصداقة التي أقامها في أوربا سوف تكون موضع تقدير من قبل الكنيسة اللاتينية والمملكة الصليبية، وتكون دافعة له ليصبح البطريرك القادم لبيت المقدس[٢].

هذا على المستوى الشخصي لرئيس البعثة، أما على المستوى العام للبعثة فلم يكن أداؤهم في المجمع مؤثراً، بالرغم من علمهم بمدى الظروف السيئة التي تمر بها المملكة الصليبية من أخطار، وحاجتها الضرورية لمساندة الغرب الأوربي لها في تلك المرحلة. لكن المؤتمرين كرسوا اهتمامهم في أمور أخرى غير تلبية مطالب المملكة الصليبية في مواجهة الأخطار المحدقة بها[٣].

---

(١) أنطاكية: هي ثاني الإمارات الصليبية التي أسسها الصليبيون في بلاد الشام، وقد تم تأسيسها على يد الأمير بوهيموند النورماني في يونيو ١٠٩٨م. وقيل إنها سميت =أنطاكية نسبة إلى أنطيوخس أحد أمراء الإسكندر الأكبر المقدوني. عن تفاصيل تأسيس هذه الإمارة انظر: المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص٦٤- ٧٠؛ فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص١٢٠- ١٢٨؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق نشره ووضع فهارسه وقدم له هـ. ف. آمدروز، ليدن، ١٩٠٨م، ص١٣٤. ١٣٦.

Cahen C., La Syrie Du Nord a Lépoque des Croisades et La Principaute Franqe d'Antioche, Institut Francais de Damas, (Paris 1940), PP.256- 260.

(٢) انظر وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٢٦.

Krey A.C.: "William of Tyre, The making of an Historian in the Middle age" Vol.XV1 No2 (April 1941) P.157.

(٣) كان هناك تسع وعشرون قراراً بالمؤتمر معظمها عن انتخاب البابا واليهود والهراطقة ومنع الإتجار مع المسلمين. للمزيد انظر وي٣٩،ر: ورود التاريخ، ضمن كتاب الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، ط.دمشق (٢٠٠٠م) جـ٣٩ ، ص٢٩٧ وما بعدها. انظر وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٢٦، ٢٢٧.

وعلى أية حال، فقد عادت الملكة إلي القدس، وتخلف عنها وليم الصوري الذي عاد في يوليو ١١٨٠م بعد غياب نحو العام، حيث وجد الأوضاع قد اختلفت تماماً عن ذي قبل، فالملك بلدوين الرابع في حالة عجز كلي نتيجة مرضه، واشتعلت مسألة الخلافة والوصاية مقرونة بالكثير من الفتن والهجمات الحادة، وقد أدت هذه الحالة إلى تكوين حزبين متعارضين لإيجاد الحلول لهذا الموقف؛ الحزب الأول وهو حزب النبلاء الوطنيين ذوى المناصب المتوارثة، والذين وجدوا في الكونت ريموند أمير طرابلس[1] الأفضل في أن يكون وصياً على العرش[2]. أما الحزب الثاني وهو حزب الوافدين الجدد إلى المملكة، وكانوا يتصفون بروح المغامرة، واتجهوا إلى اختيار جاى لوزجنيان[3] زوج شقيقة بلدوين. وكان من أهم المشجعين لهذا الحزب الملكة الأم آجنيس، كما سيطر هذا الحزب . أيضاً . على المحكمة الملكية بعد موت البطريرك أمالريك في السادس من أكتوبر ١١٨٠م، ولذلك لجأ هذا الحزب إلى السرعة

---

(١) ريموند الثالث كونت طرابلس ابن ريموند الثاني وهيدرنا Hederna ابنة بلدوين الثاني ثاني ملوك بيت المقدس الصليبية، وريموند الثالث ابن خالة الملك عمورى والد بلدوين الرابع.انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ١٨١، ١٨٢.؛ Baldwin: Raymond III of Tripolis. PP.7-8.

Conder: The Latin Kingdom of Jerusalem 1099 – 1291, London, 1897, P.135.

(٢) يُعد منصب الوصي على العرش من أهم المناصب في مملكة بيت المقدس، ونظراً لأهميته فقد كان يقسم الوصي على الأناجيل المقدسة بأن يبذل قصارى جهوده للدفاع عن المملكة وعن الوريث الشرعي، وأن يحافظ على الهبات والامتيازات التي منحها الملوك السابقون لمؤسسات المملكة، وأن يدعم العدالة في المملكة، ويفصل في المنازعات، ويحافظ على عادات وتقاليد النظام في حكم المملكة. انظر:

Begount: Le Livere Au Rois, In R.H.c.occ., Lois, P.313.

(٣) جاي لوزجنيان: هو شاب من أسرة فرنسية نبيلة من مقاطعة بواتيه بفرنسا، قدم مع أخيه أملريك، وكان جاي لا يمتلك من الشجاعة إلا القليل، ويُعد أحد أهم المسئولين عن انهيار المملكة داخلياً وخارجياً حتى سقوطها في يد صلاح الدين سنة ١١٨٧م. انظر:

Smail: The Predicaments of Guy of Lusignan, 1183- 1187"In Outremer The History of The Crusading", PP.159- 172

في اختيار خليفة له، حيث تم اختيار البطريرك الجديد خلال عشرة أيام فقط من وفاة أمالريك[١].

- هرقل بطريركاً لمملكة بيت المقدس ١١٨٠م:

ارتفع قدر هرقل داخل مملكة بيت المقدس في الوقت الذي توفى فيه البطريرك أمالريك، وقد ترشح للفوز بهذا المنصب كل من وليم الصوري رئيس أساقفة صور، وهرقل رئيس أساقفة قيسارية. والمعروف أن منصب البطريرك هو حق من حقوق ملك بيت المقدس الشرعية لا يشاركه فيها أحد، حيث يقوم رجال الدين بكنيسة القيامة بتقديم مرشح أو اثنين لهذا المنصب، ثم يتم عرضهم على ملك بيت المقدس، فإما يقر التعيين باختيار أحد المرشحين أو يرفضه والبحث عن مرشحين آخرين[٢].

وقد سعى وليم الصوري بخطى حثيثة للوصول لمنصب البطريركية[٣]، محاولاً بكل ما يملك من مقدرة على الإقناع أن يمنع وضع اسم هرقل ضمن أسماء المرشحين، وذلك بالحضور بنفسه من أسقفيته بصور إلي القدس، فيذكر صاحب كتاب ذيل وليم الصوري أن وليم جاء إلى القائمين على القبر المقدس وتحدث إليهم، ونجح في إقناع بعضهم فانضموا إليه، بعد أن وعظ فيهم مخاطباً: "أيها السادة: ها أنتم على وشك إجراء انتخاب بطريرك جديد يحل محل أبانا البطرك (آموري) وإني لأنصحكم في إيمان صادق ألا تختاروا أي أسقف من أساقفة هذه الناحية، وحذارى أن تنتخبوا رجلاً تندمون على اختياره، وتتأذى به المملكة[٤].

---

(١) Krey: Op.Cit., P.157.

(٢) Ernoul: Le Chronique, PP.83- 84; L'Estoire d'Eracles, In R.H.C., Occ.,.II, PP.58- 59.

المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص٧٩.

(٣) محمد مؤنس عوض: النقد الاجتماعي للصليبيين والمسلمين من خلال كتابات وليم الصوري (ت ١١٨٦م) وأبي شامة المقدسي (ت ١٢٦٨م) دراسة مقارنة بحث مقدم لمؤتمر اتحاد المؤرخين العرب (القاهرة ٢٠٠٧م).

(٤) ذيل وليم الصوري، ص٧٩.

ويتضح من خلال ما ذكره المؤرخ المجهول أن وليم الصوري كان يدرك أن الأمر سوف يستقر في النهاية علي المفاضلة بينه وبين رئيس أساقفة قيسارية، فيذكر مخاطباً القائمين علي هيئة الاختيار قائلاً: " لأن الأمر سيكون بيني وبين رئيس أساقفة قيسارية؛ إذ إنكم بعد انتخابكم إياه، تقدمونه إلى الملك فيقبله...". ثم يزيد من تحذيره إلى القائمين على القبر المقدس "اعلموا أن ما يدفعني للكلام معكم الآن، والنصح لكم هو إنني وجدت في أحد الأسفار أن رجلاً اسمه هرقل[١] أعاد الصليب من بلاد فارس إلي القدس، وأن آخر اسمه هرقل سوف يأخذه من القدس في يوم يكون هو فيه حاكماً، ويوم ذاك يضيع الصليب، ومن أجل هذا أريدكم العمل بما أنصحكم به، وأن تأخذوا به"[٢]. وهذه الرواية لم ترد في كتاب وليم الصوري نفسه، وهو أمر يدعو للتساؤل؟ وربما تكون الرواية نفسها دخيلة.

وعلي الرغم من حديث وليم الصوري لهيئة الاختيار، فقد تم الاختيار بينه وبين رئيس أساقفة قيسارية هرقل. وكان كلا المرشحين له هيكل وظيفي متشابه إلى أقرب الحدود، فكلاهما تلقى تعليمه الديني في مدارس الغرب الأوربي، وكلاهما أصبح رئيس أساقفة في عهد الملك عموري الأول، وإن تميز وليم الصوري عن منافسه هرقل حيث عمل مستشاراً للمملكة[٣]، فقد تساوت الكفتان عندما وجد هرقل الحظوة لدى الأسرة المالكة[٤]؛ إذ كان

---

(١) هرقل Heraclus المقصود به هنا هو الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠- ٦٤١م) الذي قام سنة ٦٢٧م بهجوم كبير علي قلب بلاد فارس ، حيث وصل إلى نينوى قرب الموصل، إذ نشبت معركة حاسمة بينه وبين القوات الفارسية أحرز فيها هرقل انتصاراً حاسماً، وفُتحت الطرق أمامه لاسترداد ممتلكات بيزنطة في الشرق وأرمينيا وسوريا ومصر، وأطلق سراح الأسرى وأعاد الصليب المقدس. للمزيد انظر:
Kaegi (W.): Heraclus Emperor of Byzantium, (Cambridge 2002) PP. 156- 166.

(٢) انظر: المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص٧٩.
Ernoul: Le Chronique, P.82. L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP.57- 59

(٣) Hamilton: The Leper King ,P.162.

(٤) رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٤٨٢.

موضع اهتمام أم الملك بلدوين الرابع "الكونتيسة آجنيس" التي عُرف عنها حبها لتوطيد علاقاتها بأقاربها وأصدقائها ، وكان هرقل من هؤلاء خاصة أنه سوف يعزز حزبها[١].

تدخلت الكونتيسة آجنيس بكل ما لديها من تأثير ، وطالبت رجال الدين انتخاب هرقل لمنصب البطريركية، لذلك فعندما توجه هؤلاء الرجال إلى اجتماعهم الذي عقد في كنيسة القبر المقدس بالقدس، ضربوا عرض الحائط بكل النصائح والتحذيرات التي أطلقها وليم الصوري ، وصدر قرارهم بانتخاب هرقل بطريركاً ووليم الصوري رئيساً لأساقفة صور، وتم تقديم الترشيح للملك بلدوين الرابع للمصادقة عليه، وقد سبقت الملكة الأم قرار اللجنة وتوجهت إلى ابنها الملك، وراحت تتوسل إليه أن يصدق على اختيار هرقل بطريركاً لبيت المقدس، فوافق الملك نزولاً علي رغبة أمه ورجائها[٢]؛ الأمر الذي جعل وليم يفيض حزنا إلي حد جعله لا يتجاوز في كتاباته الأربعة أسطر عن هذا الانتخاب ، خص ثلاثة منها للحديث عن وفاة البطريرك أملريك، وبعضٍ من صفاته ، في حين لم يتحدث عن هرقل سوى في سطر واحد، يقول فيه: ".. وبعد مضى عشرة أيام من وفاة البطرك أملريك تم انتخاب هرقل رئيس أساقفة قيسارية بدلا منه "[٣].

وبرغم حديث وليم الصوري المقتضب هذا، نستطيع أن نلحظ عليه عدة دلالات أولها: أن وليم الصوري لم يذكر صراحة الأشخاص المرشحين لذلك المنصب، ومن هي الهيئة التي اختارت البطريرك هرقل؟ ومن ثم لم يفصح وليم عن هوية هؤلاء الذين ارتضوا هرقل بطريركا. والراجح أن الذين فعلوا ذلك هم حزب القادمين حديثا من الغرب الأوربي بزعامة أم الملك بلدوين الكونتيسة آجنيس وأخيها جوسلين، اللذين كانا من مصلحتهما أن يصل هرقل إلى

---

(١) Baldwin, (M.W.): "The Decline and Fall of Jerusalem, 1174-1189" In Setton: A history of The Crusades, Vol. I, PP.590- 621.

(٢) Ernoul: Op.Cit.,P.84; المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص٧٩؛ Grousset: Histoire des Crosades, Tom II, PP.745-746; Krey: "William of Tyre" In Speculum, Vol. 16, No 2, and P.158.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص ٢٦٠.

البطريركية، بالرغم من أنه لم يكن جديراً به عن منافسه وليم الصوري؛ وذلك رغبة في أن يحتفظ هذا الحزب بالمركز والسيطرة على مقاليد الحكم في المملكة.

وثاني هذه الدلالات: لم يصرح وليم الصوري بأن أم الملك الكونتيسة آجنيس كانت وراء اختيار هرقل للبطريركية على غير عادته، فقد ذكر من قبل تدخل الملكة مليسند لاختيار البطريرك وليم في فترة وصايتها على بلدوين الثالث. وتحدث أيضا عن تدخل أخت الملكة مليسند والكونتيسة سيبيلا أخت الملك وزوجة كونت فلاندرز في تعيين البطريرك أملريك[١].

وثالث هذه الدلالات تظهر في عدم قيام وليم الصوري بذكر أية تفاصيل عن حياة هرقل وصفاته، وهو بخلاف ما كان يذكره عند الحديث عن تعيين بطريرك جديد للمملكة. أما الدلالة الرابعة فتظهر في مرور عشرة أيام على وفاة البطريرك أمالريك دون أن يُنتخب خلفٌ له؛ مما يدعونا إلي أن نستنتج بأنه جرت مشاورات واختلافات كثيرة للاختيار بين المرشحين استغرقت عشرة أيام كاملة. لذلك لا مانع من أن تكون هناك أصوات عارضت في البداية اختيار هرقل للبطريركية، ولا مانع أيضاً من أن تكون بعض آراء كبار نبلاء المملكة وعلى رأسهم الملك بلدوين نفسه، قد توجهت إلى إمكانية انتخاب وليم الصوري بدلا من هرقل، ومن المرجح أن هؤلاء النبلاء تناقشوا حول عملية الاختيار طوال مدة العشرة أيام، لكن المحصلة كانت نجاح الكونتيسة آجنيس في التأثير على ابنها الملك بلدوين لحسم موقفه، واختيار هرقل بطريركا لبيت المقدس جرياً على رأي أغلب المصادر والمراجع. وهناك ملاحظة أخري أن وليم الصوري لاذ الصمت فلم يتحدث عن الذين عارضوا في البداية اختيار هرقل، بخلاف حديثه المفصل سنة ١١٥٧م عن المعارضين لاختيار البطريرك أمالريك[٢].

علي أية حال، فقد أجمعت عدة مصادر مثل أرنول وتاريخ هرقل وذيل وليم الصوري وبعض المراجع الحديثة التي انتهجت نهج المصادر السالفة الذكر علي أن السبب الذي جعل الملكة الأم تفعل ذلك هي العلاقة غير الشرعية مع البطريرك؛ "إذ كانت تعشقه لجماله

---

(١) وليم الصوري: نفس المصدر، ج٣ ص٤٢٤.

(٢) وليم الصوري، المصدر السابق، ج٣ ص٤٢٤.

ووسامته"[١]. وعلى الرغم من تأييد المؤرخ المجهول لهذا الكلام، فأنه أردف قوله واصفاً هرقل بأنه "كان رجلاً ضخم الجثة، منحل الأخلاق"[٢]. وهذا الوصف يتعارض تماماً مع قولهم السابق هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كيف يتقبل الملك هذه الشائعات دون أن يكون كا أو رافضاً لطلب أمه مهما بلغ تأثيرها عليه؟!، ويرى أحد الباحثين أن تلك الشائعة ربما كان مصدرها وليم الصوري، وعنه نقلت بقية المصادر المعاصرة في تلك الفترة سواء كتاب أرنول أو حولية تاريخ هرقل أو حتى المؤرخ المجهول صاحب كتاب ذيل وليم الصوري، بوصف أن أم الملك كانت سبباً في إبعاد وليم الصوري عن منصب كان تواقاً للوصول إليه، وهو منصب البطريركية[٣] .

في الواقع فإن المصادر جميعها لم تنقل عن وليم الصوري تلك الشائعة؛ فلم يرد في تاريخ وليم الصوري أي اتهام غير أخلاقي للكونتيسة آجنيس، ربما حرصاً على مشاعر ابنها الملك بلدوين الرابع الذي كان وليم لا يزال يعمل مستشاراً له، وإنما مصدر هذه الشائعة هو المؤرخ إرنول والذي ربما نقل عنه . أيضا .كل من ذيل وليم الصوري وتاريخ هرقل، وهناك سبب مهم جعل أرنول كارها للملكة آجنيس، وهو أن أرنول كان ربيب بيت ابيلين ، ولما تقدم أحد سادة بيت ابيلين وهو "بلدوين أبلين" Baldwin Ibellin لخطبة سيبيلا أخت بلدوين الرابع عارضت الأم الكونتيسة آجنيس هذه الخطبة؛ إذ عُرف عنها كرهها الشديد لأقارب أزواجها[٤] ، ومن ثم كرهت ارتباط ابنتها من بلدوين الذي ينتمي إلى بيت ابيلين. لذلك

---

(١) Ernoul: Le Chronique, PP.82- 83; L'Estoire d'Eracles. In R.H.C., occ, II, PP. 57- 59;

المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص٧٩.

(٢) انظر: ذيل وليم الصوري، ص٧٩.

(٣) أسامة زكى زيد: ملكات بيت المقدس، ص ٥٣.

(٤) المعروف أن آجنيس كانت زوجة لـ هيو ابلين، الأخ الأكبر لبلدوين ابلين. انظر :

Edbury . John of Ibelin and the Kingdom of Jerusalem , in: J. R. A. S., Third Series, vol., 9, Part 1, April 1999, Cambridge University Press 1999, p. 141 ; " The Queens of Jerusalem 1100-1190 ", p. 166.

كان أرنول منحازا لعائلة ابيلين ضد الملكة آجنيس. هذه نقطة، والنقطة الثانية فان وليم الصوري كان أذكى من أن يشّهر بالملكة آجنيس، ويتهمها بهذه التهمة غير الأخلاقية، وهو يعمل مستشارا لابنها بلدوين الرابع. صحيح أن وليم الصوري كان حانقا على آجنيس لكن لم يرد في تاريخه أي اتهام أخلاقي لها. ومما يدعو للانتباه . أيضا . أن حديثه عن انتخاب هرقل بطريركا كان مقتضبا جدا، ولم ينقل لنا أي تفاصيل موسعة عنه، وهذا أمر يدعو للتساؤل أيضا، لكن أمر تدخلها لصالح هرقل أثار غضب وحفيظة وليم الصوري ضد هذه السيدة وأصدقائها ومقربيها[١]. فقد ذكر هاملتون أن أمر اتهام آجنيس بهذه التهمة الأخلاقية قد يكون مجرد ثرثرة خبيثة وجهت إلي الملكة الأم[٢].

ومما يجدر ذكره أن بُعد النظر السياسي لدى الملكة الأم كان هو السبب الحقيقي وراء الإلحاح في اختيار هرقل بطريركاً لبيت المقدس، فقد وجدت في البطريرك الجديد ضالتها لتقوية ما عُرف بحزب البلاط Court Party والذي كان يتألف من الأقارب والموالين للملكة آجنيس، وكان هذا الحزب يضم إلى جانب البطريرك هرقل وبلدوين وجاى لوزجنيان وجوسلين الثالث كورتناى[٣]، والذين سعوا لفرض سيطرتهم على بلدوين الرابع المريض، والعمل على استمرار حكمه ضد الحزب المنافس الذي يتألف من الصليبيين الأوائل، وعلى رأسهم ريموند الثالث وباليان الأبليني ووليم الصوري وغيرهم[٤] .

ويلاحظ أن موضوعات الشذوذ الجنسي للكهنة، ورجال الدين والعلاقات غير الشرعية مع المحظيات والزواج منهم، كانت من الموضوعات التي أولتها البابوية اهتماما مستمرا علي

---

(١) Baldwin: "The Decline and The fall of Jerusalem", P.597.

(٢) Hamilton ,The Leper King, P.163.

(٣) جوسلين الثالث: هو ابن جوسلين الثاني ملك بيت المقدس، وقد تم تعيينه سنكالا للمملكة بأمر من ابن أخته بلدوين الرابع سنة ١١٧٧م.انظر: رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ص٤٦٤، ٤٦٥.

(٤) باليان هو أخو بلدوين أبلين صاحب الرملة وزوج الملكة ماريه كومنين أرملة عمورى الأول، وسيد مدينة نابلس التي حازتها الملكة ماريه كمعاش لها. انظر: Ernoul: Le Chronique, PP.44-48;

وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢١١.

مدار القرن، فقد اضطر البطريرك السابق لبيت المقدس أرنولف[١] Arnulf de Chocques ، للمثول أمام المحكمة البابوية عام ١١١٦م للدفاع عن نفسه ضد الاتهام الموجه إليه بإقامة علاقة غير شرعية مع زوجة أحد حراسه، وأيضا مع امرأة بدوية يقال إنها أنجبت له ولداً[٢]. ومع وجود تلك السوابق التي طالت أعلي المناصب الدينية من قبل، لم يُستثن البطريرك الجديد من التشهير بشخصه في صور شتي من الحرب الكلامية بين حزبين سعي فيها حزب وليم الصوري للنيل من شخص رجل الدين في الحزب الموالي للأسرة المالكة، وذلك بهدف التقليل من قدر الحزب بأكمله، والحط من مكانة الأسرة الملكية، وبذلك يتم لهم تقويض هذا الحزب نهائياً.

- رؤية المؤرخين المعاصرين وغيرهم لهرقل:

انهالت التهم على شخص البطريرك هرقل وطالته في أخلاقه وسلوكه، وحتى في تعليمه الديني، وسواء أكانت هذه التهم حقيقية أم باطلة، فلابد وأن نتوخى الحذر في الأخذ بها أو تركها، وخاصة أنها أُطلقت أثناء معركة سياسية في الأصل بين حزبين كليهما يسعى لإزاحة الآخر من سدة الحكم، وسوف نورد ما ذكره بعض المؤرخين عن شخص البطريرك هرقل حيث

---

(١) أرنولف دي شوك جاء إلي بيت المقدس رفقة الأمير روبرت النورماندي، وكان قسيساً ومعلماً لسيسيليا Cecillia ابنة وليم الأول الفاتح ملك إنجلترا، وقد كان أرنولف شخصية مثيرة للجدل؛ ففي الوقت الذي أجمع فيه كل من ريموند أجيل ووليم الصوري أنه صاحب سمعة سيئة، رأي فيه آخرون أنه شخصية عاقلة شريفة، وهنا نري تناقضا بين المؤرخين حول شخصيته، وقد تم انتخابه بطريركا لبيت المقدس سنة١٠٩٩م، واستمر لفترة خمسة أشهر فقط. للمزيد انظر: المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي(القاهرة،١٩٥٨م)ص١٢٠، ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطية،دار المعرفة الجامعية،ط إسكندرية(١٩٨٩م) ص٢٥٨- ٢٥٩؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية،ج٢،ص١٤٤-١٤٥؛ جوناثان ريلي سميث: الحملة الصليبية الأولي وفكرة الحروب الصليبية، ت محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط٢، القاهرة(١٩٩٩م) ص١٥١.؛

Bernard Hamilton: The Latin Church in the Crusaders States. (London, 1980), P.12.

(٢) Kedar: Op. Cit., PP.182-183.

ذكر المؤرخ المجهول: " أنه كان رجلاً عديم الحياء، وليس له من العلم إلا النذر القليل ، كما أنه كان عبداً لشهواته"(١).

أما المؤرخ أرنول فذكر أن هرقل في نظره ليس سوى: " رجل دين فقير لا يعرف القراءة والكتابة إلا القليل"(٢). وعلى دربه سار أيضاً صاحب حولية تاريخ هرقل، فذكر رواية تتفق مع الروايتين السابقتين(٣). وعند مطالعتنا للمراجع الحديثة التي تناولت هذا الموضوع نري المؤرخ ستيفن رانسيمان ذكر عنه أنه كان قسيساً لا يكاد يعرف القراءة والكتابة(٤). ونري فيما سبق افتراء علي الواقع، والحقيقة أن هذا الافتراء يمكن تفنيده من خلال الدراسة؛ وذلك أن هرقل درس بجامعة بولونيا وحصل منها علي درجة علمية متقدمة في الدراسات الدينية، أما المؤرخ كيدار فقد ألصق عدة صفات سيئة لهذا البطريرك على لسان عدد آخر من المؤرخين منها الفاسد البائس، صاحب السمعة الشائنة، ومدنس للمقدسات(٥). أما رينيه جروسيه فقد وصف هرقل بأنه كاهن حقير غير مستحق للبطريركية، فهو متحجر القلب عديم النشاط(٦). في حين ذكر بلدوين عنه أنه لا قيمة له على الإطلاق(٧). والراجح أن الكثير من المؤرخين المحدثين أمثال رانسيمان وجروسيه وبلدوين ربما نقلوا عن المصادر المعاصرة دون تمحيص، كذلك فإن الأعمال التي قام بها هرقل في إدارة الكثير من الأزمات وفي مهامه الرسمية في الغرب الأوربي والتي أبدى فيها قدراً من الكياسة والمهارة والحنكة السياسية تناقض تماما ما ذكرته بعض المصادر بأنه قليل العلم عديم النشاط.

---

(١) انظر: ذيل وليم الصوري، ص٨١.

(٢) Le Chronique, PP. 82- 83.

(٣) L'Estoire d'Eracles ,PP.57 - 60.

(٤) تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٤٨٢.

(٥) انظر: Kedar: The Patriarch Eraclius, P.177.

(٦) Grousset ,Histoire des Croisades , Tom.II.P.745.

(٧) Baldwin(M.): "The Decline and The fall of Jerusalem, Vol., I, P.597.

وكان في تعارض بعض الآراء مع هذه الآراء المتشددة مجالٌ لتناول هرقل عند المؤرخين قديماً وحديثاً [١]. وإضافة إلى ما سبق ذكره فقد ذكرت روايات أخري أكثر حدة عن أعمال سيئة لهذا البطريرك؛ نذكر منها ما روته بعض المصادر من أن هرقل اتخذ لنفسه عشيقة تُدعى باسك دى ريفرى Pasque de Riveri ، وهى زوجة تاجر أقمشة وثياب في مدينة نابلس[٢]. وقد ذكرت المصادر أن البطريرك اعتاد أن يأتي بها إلى القدس لتقيم معه لفترة من الزمن، وكان يغدق عليها وعلى زوجها الأموال، حتى صارا من الأثرياء، ومن أجل ذلك فقد اعتاد زوجها أن يغمض عينيه عما يفعله البطريرك، وعندما مات زوجها حمل البطريرك أرملته وجعلها تعيش معه على الدوام، ثم اشترى لها داراً، وأغدق عليها الأموال والهدايا حتى صارت أغنى امرأة شاهدها أهل القدس، وكان الأهالي يقولون عنها إذا رأوها: "انظروا ها هي البطريكة"[٣].

وتواصل المصادر ذكر رواية أخري تُعد مدعاة للسخرية، والتي تذكر أن الملك بلدوين الرابع وباروناته كانوا في جلسة بقصر البطريرك هرقل يناقشون فيها بعض الأمور المهمة، ثم دخل أحد الخدم وهم مجتمعون، وصاح بالبطريرك: "سيدي البطرك لقد جئتك بنبأ طيب فإن كافأتني مكافأة سخية أفضيت به إليك، وظن البطريرك والملك والمجتمعون أنه سوف يذكر خبراً فيه نصر للمسيحية، وقال له البطريرك: هات ما عندك أيها القسيس. فقال له الخادم: لقد وضعت السيدة باسك دى ريفرى الساعة ابنة لك" فرد عليه البطريرك قائلاً: "اخرس أيها

---

(١) Kedar: Op.Cit., P.178.

(٢) نابلس هي بلدة فلسطينية اسمها قديماً شكيم، وتقع بين جبلين هما جاروزيم (جبل الطور) وعيبال ويُسمى اليوم ستى سلاميه، استولى عليها الصليبيون بقيادة تانكريد قبل أيام من سقوط القدس في أيديهم سنة ١٠٩٩م.انظر: بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي، ت عزار حداد، ط١، أبو ظبي (٢٠٠٢م)، ص٢٤٤ حاشية(١).: سعيد البيشاوى: نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية عصر الحروب الصليبية. ط عمان (١٩٩١م).

(٣) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص٨١- ٨٢؛
Ernoul: Op.Cit. P.83- 84.

الأحمق ولا تزد"[١]. ولو صحت هذه الرواية فإنها توضح لنا صورة من صور انحلال المجتمع الصليبي، ولكن هناك الكثير من الثغرات التي تجعلنا نحذر ونحن نتعاطي مع هذه الرواية التي تبدو استمراراً لمسلسل الحط من قدر وهيبة رأس الكنيسة اللاتينية بمملكة بيت المقدس، نذكر من هذه الثغرات ما ذكره المصدر[٢] من انتقال الملك وكبار رجال الدولة لعقد اجتماع في قصر البطريرك لمناقشة أمور تخص الدولة، علماً بأن ملك بيت المقدس مريض ويعانى من مرض الجذام. أما الأمر الثاني طريقة دخول أحد الخدم في حضرة الملك وكبار رجال الدولة بهذه الطريقة التي تناولها المؤرخ فهي أبعد ما تكون عن الحقيقة. ولذلك يمكن القول إن هذه الشائعة لا يمكن الفصل فيها بسهولة. وخاصة أن بعض البطاركة في القرن الثاني عشر اتهموا مع بعض رجال الدين بفضائح جنسية نذكر منهم البطريرك أرنولف في بداية تأسيس المملكة اللاتينية. ومع ذلك لا يوجد الدليل الذي يؤيد الرواية التي ذُكرت على البطريرك هرقل[٣].

موقف البابوية من طريقة اختيار هرقل بطريركاً للقدس:

إن المتأمل للعلاقة بين السلطة الدينية والسلطة العلمانية في مملكة بيت المقدس يلاحظ إخفاق كل المحاولات التي بذلتها الكنيسة في تحويل هذه المملكة إلى دولة كنسية، وحتى دعاوى ومطالب البطاركة من أجل فرض سلطة دينية في مدينة القدس، لم تسفر إلا عن تأسيس حي للبطريرك في مدينة القدس، ويقع حول كنيسة القبر المقدس فقط. وقد وضح سلطان الملك على الكنيسة جلياً عندما كان يخلو منصب البطريركية، فكان من حق الملك الموافقة على اختيار البطريرك الجديد أو رفضه[٤]. لكن من الواضح أن الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس لم تحقق أية سلطة سياسية في مملكة بيت المقدس. فالصراع حول التقليد

---

(١) انظر: ذيل وليم الصوري، ص٨٢.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) Hamilton: The Leper King, P.163.

(٤) جمعة مصطفى الجندي: الاستيطان الصليبي في فلسطين (٤٩٢-٦٩٠هـ/ ١٠٩٩-١٢٩١م)، مكتبة الأنجلو المصرية ط.القاهرة (٢٠٠٦م)، ص ٩٣.

العلماني[١]، والذي نغص مضاجع ملوك وأباطرة الغرب الأوربي وباباوات روما لم تعرفه المملكة اللاتينية في فلسطين[٢].

وقد عدَ المؤرخ رينيه جروسيه أن طريقة اختيار هرقل بطريركاً كانت لاعتبارات سياسية من قبل السلطات المحلية بالقدس؛ مما يفسر استبعاد البابوية وسلطاتها من هذا الاختيار، الأمر الذي أدى في النهاية إلى جعل رئاسة الأماكن المقدسة تذهب إلى رجال دين لم يكن لهم من السمة الكهنوتية سوى الملبس فقط[٣].

على الرغم من أن الملك بلدوين الرابع لم يمارس حقه الشرعي في اختيار البطريرك هرقل، بعد أن تدخلت أمه آجنيس في شئون الحكم والإدارة، ومارست تأثيرها الفاسد على الملك[٤]. في حين يرى آخرون أن تقليد الترشيح المزدوج، والذي سجل لأول مرة في مسألة اختيار هرقل قد تم إدانته بشدة من قبل البابا سلستين الثالث عام ١١٩١م، وهذه العادة التي

---

(١) التقليد العلماني: شهدت أوربا في العصور الوسطى، نزاعاً بين البابوية والعلمانيين حول السلطة الدنيوية، فيما

عُرف بالتقليد العلماني، حيث أصر بابا روما أنه مصدر السلطة الشرعية على الأرض نيابة عن القديس بطرس، وأن له الحق في منح السلطة للملوك والأباطرة المتعاقبين، وأن على الأباطرة الخضوع التام للبابا مانح السلطة ومصدر التشريع، كذلك يحق للبابا عزل وتعيين رجال الدين، وقد لقي ذلك معارضة الأباطرة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعدوه خطراً على سلطتهم، لأنه يجعل من رجال الدين دولة داخل الدولة، وقد اندلع هذا النزاع في عهد البابا جريجورى السابع والإمبراطور هنري الرابع، واشتد في عهد الإمبراطور فردريك الثاني والبابا جريجورى التاسع. انظر: نورمان كانتور: قصة حضارة بداية ونهاية، ج٢، ت. قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٣٦١- ٣٧٣؛ سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج١، مكتبة الانجلو المصرية، ط. القاهرة، ١٩٩٤م ص٣٥٤ وما بعدها؛ رأفت عبد الحميد: "السمو البابوي بين النظرية والتطبيق"، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، دار المعارف. ط القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٥٩ وما بعدها.

(٢) يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ت عبد الحافظ البنا، ط.(القاهرة ٢٠٠١م)، ص١٣٣.

(٣) Grousset ,Histoire des Croisades, Tom II, P.746.

(٤) أسامة زكي زيد: ملكات بيت المقدس، ص٥١- ٥٢.

شهدت على السيطرة المتزايدة التي كانت تمارس من قبل القصر الملكي على الكنيسة، والتي ظهرت بوضوح عام ١١٨٠م، وهي العادة التي تم تطبيقها على كل انتخابات البطاركة والأساقفة بعد هذا التاريخ، وقد سادت جميع أنحاء الشرق اللاتيني، ولا تعكس هذه العادة سيطرة السلطة الزمنية فقط على الكنيسة، ولكن تعنى أيضاً تقليص سلطة البطريرك في حرية رئاسة المجالس الكنسية المحلية[١].

ـ موقف وليم الصوري من تولية هرقل البطريركية:

ولا ريب في أن اختيار هرقل بطريركاً للقدس أضاع كل طموحات وليم الصوري في تحقيق آماله، بأن يصبح بطريركاً بعد أن كان هو الأقدر والأجدر لهذا المنصب، ولذلك حمَّل وليم الصوري أم الملك بلدوين السبب في إبعاده عن منصب البطريركية[٢]،ومما زاد الأمر سوءًا تهميشه في الجهاز الإداري، فأصبح لا يستعان بخدماته وعلاقاته بكبار الشخصيات في الدول الأوربية (مثل ذي قبل) إلا في المناسبات الرسمية فقط، ومن ثم روض نفسه على حياة العزلة والابتعاد عن الناس، وكرس معظم وقته لعمله في أسقفية صور والكتابة[٣]. والمدقق في هذه الظروف سوف يفهم الموقف العدائي الذي اتخذه وليم الصوري من هرقل.

لم يستسلم وليم الصوري بعد إبعاده عن منصب البطريركية، فقد كانت لديه قناعة بأن اختيار هرقل تم بطريقة غير قانونية، ولذلك صمم على التقدم بشكوى إلى المحكمة البابوية في روما، كما فعلها من قبل رئيس أساقفة قيصرية وأسقف بيت لحم برفع دعواهما سنة ١١٥٨م إلى المحكمة البابوية ضد انتخاب البطريرك أملريك، وهو السابق لهرقل والذي تم اختياره عن طريق مليسندا الملكة الأم في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أن المحكمة البابوية رفضت هذه الدعوة، فإن وليم الصوري عزم على تقديم دعواه إلى المحكمة البابوية[٤].

---

(١) Kedar: Op.Cit., P.188.

(٢) أسامة زكي زيد: ملكات بيت المقدس، ص٥٣.

(٣) Krey: "William of Tyre" In Spec. Vol.16, No 2, P.157.

(٤) Kedar: "The Patriarch Eraclius", P.188.

لم يكف هرقل من جانبه عندما علم بذلك عن التضييق على وليم الصوري بوصفه خطراً على الحزب الذي ينتمي إليه [١]، وراح يحوك المؤامرات ضد وليم، ونجح بعد عام واحد من اعتلائه سدة الكرسي البطريركي. ففي الثاني من أبريل سنة ١١٨١م، وفي احتفالية ما يُعرف بخميس العهد[٢] كان البطريرك هرقل واقفاً على جبل صهيون يقوم بالمسح بالزيت المقدس (من الطقوس الدينية المسيحية)، وإذا به يعلن فجأة قرار الحرمان[٣] ضد رئيس أساقفة صور (وليم الصوري) دون أي محاكمة أو اتهام، ودون أي حق؛ مما يخالف سنن العدالة[٤].

وبعد محاولات عقيمة لرأب الصراع بينهما، رحل وليم الصوري سنة ١١٨٢م إلى روما للدفاع عن قضيته لدى البلاط البابوي، ومكث هناك حتى مات[٥]. وقد نسب بعض المؤرخين إلي هرقل بأنه كان سبباً في وفاة وليم الصوري، وذلك بأن أرسل معه من دس له السم في روما.[٦] ولكن ليس ثمة دليل يؤكد ذلك.

---

(١) رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٤٨٣.

(٢) خميس العهد أو الخميس الكبير من الأعياد الصغرى لدى الأقباط، وهو يحمل ذكريات الأربعة وعشرين ساعة الأخيرة من حياة السيد المسيح على الأرض؛ إذ بحلول هذا اليوم اقتربت الساعات من الصليب كما يعتقد المسيحيون. انظر: القمص مكسيموس وصفي: "خميس العهد روحياً عقيدياً طقسياً" اليوم الخامس من الشعانيين.

(٣) الحرمان الكنسي: يعنى الطرد من مجتمع الكنيسة كلية، ومن ثم يحرم صاحبه من إيمان الطاعة والتبعية، وقد تم تقسيم الحرمان إلى ثلاث درجات: الحرمان الصغير ويوقع على مرتكبي المخالفات البسيطة، والحرمان الكبير ويوقع على مرتكبي الجرائم الكبيرة، وأخيراً اللعنة، وهى أقوى من الدرجتين السابقتين، والتي كانت عقوبتها القتل. انظر: عادل عبد الحافظ حمزة: "الحرمان الكنسي في العصور الوسطى حتى نهاية النصف الأول من القرن١٣م"، مجلة جامعة حلوان، كلية الآداب، العدد الخامس، يناير ١٩٩٩م، ص٤٢٥- ٤٢٨.

(٤) رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٤٨٣.

(٥) رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٤٨٣.

(٦) Ernoul: Op.Cit., PP.84- 86. L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP.57- 59.
المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص٨٣.

ـ بطريركية بيت المقدس في عهد هرقل:

أظهر هرقل مرونة سياسية خلال فترة إدارته لشئون البطريركية، كما نجح في إدارة عدة أزمات تعرضت لها مملكة بيت المقدس في تلك الفترة. ويأتي في مقدمة هذه المسائل ترأسه لبعثة ملكية إلى مدينة أنطاكية سنة ١١٨١م، بهدف التوسط بين أمير أنطاكية بوهيموند الثالث وبطريركها إيميرى من ليموج Aimery of Limoges ، وذلك بسبب زواج بوهيموند المخالف لقواعد الكنيسة[١].

ويعود هذا النزاع إلى عام ١١٨٠م، وبعد موت الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (١١٤٣- ١١٨٠م)، حيث قام بوهيموند بتطليق زوجته ثيودورا (ابنة يوحنا أخو الإمبراطور مانويل) وأخت ماريا أرملة الملك الصليبي عمورى الأول، واتخذ لنفسه امرأة ساقطة تُدعى سيبلا Sibylle صديقة له. وكان نبلاء أنطاكية يكرهونها؛ لأنها كانت جاسوسة تتلقى الأموال من صلاح الدين الأيوبي لقاء معلومات تتصل بالجيش الصليبي وتحركاته، ربما لم يكن هذا هو السبب الحقيقي وإنما وجد رجال الدين في ذلك مخالفة لشريعة الكنيسة، ولذلك ساند النبلاء البطريرك إيميرى في محاولة إقناع بوهيموند بترك حياة الفسق التي يحياها، ولما عجز عن ذلك أصدر البطريرك قرار الحرمان ضد بوهيموند، كما أصدر قرار حرمان جماعي ضد الإمارة كلها، لكن بوهيموند لم يمتثل للقرار، واستمر في خطيئته، وعامل رجال الدين معاملة سيئة، وحاصر البطريرك وبقية رجال الدين في قلعة تابعة لبطريركية أنطاكية[٢].

وإزاء هذه المشكلة عقد الملك الصليبي بلدوين الرابع مجلساً ملكياً حضره بطريرك القدس هرقل، وعدد من كبار النبلاء ورجال الدين، وتقرر فيه إرسال وفد من المملكة للأمير

كما أن رحيل وليم الصوري وموته مجهولان، وتاريخه يتوقف في سنة ١١٨٣م. انظر: رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ٤٨٣؛ محمد مؤنس عوض: "دراسة مقارنة بين وليم الصوري وأبو شامة المقدسي"، ص١٨.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٦٣- ٢٦٨.؛

Kedar: Op.Cit. P.189.

(٢) رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٤٨٦- ٤٨٧.

الأنطاكي لإنهاء هذا النزاع[١]. وقد ضم الوفد الذي رافق هرقل كل من رينو دى شاتيون (أرناط)[٢]، إضافة إلى مقدمي الداوية والاسبتارية، فضلاً عن بعض رجال الدين بالمملكة ومنهم ريموند الثالث أمير طرابلس، والذي كان من أقرب أصدقاء بوهيموند الثالث. ولقد كانت مهمة ناجحة للوفد الملكي وللبطريرك هرقل. وهذا يعطى دليلا على المهارة الدبلوماسية للبطريرك، فيُذكر أنه بعد اجتماع تمهيدي عُقد مع بوهيموند وبطريرك أنطاكية تم عقد عدد من الجلسات المستقلة في مقر الأمير تارة وفى البطريركية تارة أخرى، تم إقناع الطرفين لحضور اجتماع مشترك يجمع بينهما في كنيسة أنطاكية، وتم إقناع بوهيموند بإعادة ما صادره من أملاك الكنيسة، وفى المقابل رفع البطريرك قرار الحرمان عن الأمير، كما وافق بوهيموند على الانفصال عن صديقته سيبيلا وإعادة زوجته ثيودورا لعصمته، وتم توقيع اتفاق المصالحة أمام البطريرك ورفاقه، ويُعد هذا انتصاراً لدبلوماسيته الناجحة[٣].

ومن الجوانب المهمة . أيضاً . والتي أولاها البطريرك هرقل، محاولته من أجل استعادة جزء من الصليب المقدس، والذي كان قد سبق أن أُرسل إلى أوربا في عهد البطريرك

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٦٨- ٢٨٣؛ رانسيمان: المرجع السابق، ج٢،ص٤٨٧؛
Hamilton: The Leper King and his Heirs Baldwin IV, P.165.

(٢) رينو دي شاتيون: هو مغامر صليبي قدم من مقاطعة شاتيون Chatillon الواقعة شرق فرنسا بدافع الطمع والمغامرة، ظهر اسمه بعد أحداث الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٥٣م، وتزوج من الأميرة كونستانس Constance، وقد جعل منه هذا الزواج أميراً على أنطاكية، ثم دفعه طموحه؛ لأن يتحرك عسكرياً لتوسيع نفوذه خارج إنطاكية على حساب الممتلكات الإسلامية؛ مما جعله يقع أسيراً في حلب سنة ١١٦٠م، ويستمر لأكثر من ستة عشر عاماً، وقد أطلقت عليه المصادر الإسلامية اسم أرناط. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مراجعة الدكتور محمد يوسف الدقاق، المجلد العاشر،ط٤، دار الكتب العلمية بيروت (٢٠٠٣م)، ص١٣٢؛
Schlumberger (G.): REnaud de Chatillon Prince d Antioche, Seigneur de Laterre d outré - Jourdain, Librairieie Plon (Paris, 1923), Tom I, PP.115- 134.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٢٦٥- ٢٦٨؛ رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٤٨٧؛ Baldwin: The Leper King- P.166.

فولشر[١] Fulcher المتوفى سنة ١١٥٧م؛ ليكون بمنزلة مزار بديل للمسيحيين غير القادرين على نفقات الحج إلى القبر المقدس بفلسطين. ويبدو أنه تم الاستيلاء عليه بالتواطىء من الدوق كونراد الثاني أف داكو[٢] Duke Conrad II of Dachqu ، ولم تتمكن قوانين الكنيسة من استعادته، ولذلك فقد قدم كونراد الثاني لمقابلة البطريرك هرقل أثناء قدومه للحج في الأراضي المقدسة، وتوسل إليه في السماح له بامتلاك الأثر المقدس ، ولقد قبل البطريرك فارضاً على الدوق مقابل ذلك ضرورة استعادة بعض الممتلكات الأخرى المستولى عليها من كنيسة القبر المقدس، وقد تم له ذلك، وبذلك تمكن من استعادة الكثير من الممتلكات التي فقدتها كنيسة القبر المقدس في العهود الماضية[٣].

والواضح أن هرقل اكتسب صداقة البابا لوكيوس الثالث[٤] Lucius III (١١٨١-١١٨٥م) ؛ لذلك فقد طلب منه التدخل في حسم خلاف وقع بين ديرين من أكبر الأديرة

---

(١) البطريرك فولشر (١١٤٦- ١١٥٧م): تم اختياره بطريركاً لبيت المقدس في الخامس والعشرين من يناير سنة ١١٤٦م، وكان فولشر في ذلك الوقت يشغل منصب رئيس أساقفة صور، وقد ظل بطريركاً لبيت المقدس حتى وفاته في العشرين من نوفمبر سنة ١١٥٧م ، وخلفه في البطريركية أمالريك من نيسلى.
انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣، ص٢٦٥، ٤٢١، ٤٢٤.

(٢) كونراد الثالث (١١٧٢- ١١٨٢م): هو الابن الوحيد لكونراد الأول دوق ميرينيا أو Merania ، وكان كونراد طفلا Matilda of Falkenstein، وماتيلدا من فالكنشتاين Dalmatia دلماتيا حينما توفى أبوه سنة ١١٥٩م، وخلفه في دوقية ميرينيا، وعندما كبر ورث عن عمه أرنولد دوقية داخاو ، وفى سنة ١١٧٢م تم ترسيمه دوقا لداخاو تحت اسم كونراد الثالث، Dachau or Dachawe وظل دوقا لها حتى وفاته في الثامن من أكتوبر سنة ١١٨٢م، ولم يكن له وريث. انظر:
http:// en.wikipedia.org/wiki/Conrad-III-of-dachau

(٣) Kedar: The Patriarch Eraclius, P.189.

(٤) البابا لوكيوس الثالث: هو Ubaldo Allu Cingoli، ولد سنة ١١١٠م في Lucca. أصبح شماساً ثم رئيس كرادلة أوستيا في ١١٥٩م، وظل يترقى في المناصب الكنسية حتى تم تعيينه بابا لروما خلفاً للبابا إسكندر الثالث، وذلك في الأول من سبتمبر سنة ١١٨١م، وظل في منصب البابوية حتى وفاته في الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١١٨٥م. عنه بالتفصيل انظر:
Kelly: Oxford Dictionary of Popes, PP.180-181.

بالأراضي المقدسة، وهما دير معبد السيد ودير معبد القديسة مريم في وادي جوسفات[١]، وقد نشب الخلاف بينهما؛ بسبب عدة أمور منها ضرائب العشر التي كان يجبيها الدير الأول من قرية صافي[٢] الواقعة على حدود إقطاعية نابلس، ومن بعض الأراضي المحيطة بها. وكذلك ضرائب العشر الخاصة بنصف قرية ميثلون Metalun[٣] (شمال نابلس)، وعلى الرغم من اتفاق رجال الدين على حل هذه المشكلات، لكنه تكرر في سنة ١١٨٦م؛ الأمر الذي جعل البابا لوسيوس يطلب من البطريرك هرقل التدخل لفض هذا النزاع، ونجح هرقل في جمع مقدمي الديرين، وتم عقد اتفاق بينهما بحضور حشد كبير من رجال الدين اللاتين الذين شهدوا على الوثيقة التي تضمنت شروط الاتفاق التي تم تأكيدها أيام البطريرك هرقل[٤].

---

(١) وادي جوسفات: يمتد شرقي بيت المقدس بين جبل الزيتون شرقاً وجبل موريا غرباً، وقد أطلق عليه المؤرخون في العصور الوسطي لقب وادي جهنم، ويعتبر جزءًا من وادي قدرون، ويعرف بعدة أسماء . أيضا - منها وادي مريم وادي النار ووادي سلوان. انظر. سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس،ص١٣٢، حاشية رقم(٤).

(٢) قرية صافي: تعرف بخربة صافي ويطلق عليها اسم قرية صافيت، وتقع غربي مدينة نابلس. يحدها شمالا قرية بيت وليد وقرية سفارين ومن الشرق قرية كفر قدوم والجنوب الشرقي قرية الفندق. انظر: سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ص٢٠١ حاشية رقم (٢).

(٣) قرية ميثلون: يقال إن هذه القرية كانت خربة، وقد ذكرتها بعض الوثائق باسم خربة نابلس . أما الآن فهي قرية عامرة بالسكان وأراضيها خصبة ومحاطة بالكثير من القرى وخاصة قرية صانور الواقعة جهة الشمال الغربي منها وقرية سريس الواقعة إلى الجنوب الشرقي منها. سعيد البيشاوى: المرجع نفسه، ص٢٧٩ حاشية رقم (٣).

(٤) سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ص٢٧٩- ٢٨٠.

Kedar: Op.Cit. P.189.

ومن أنشطة هرقل الأخرى محاولته التدخل لإخضاع كنيسة أنطاكية اليعقوبية[١]، مستغلا حدوث نزاع داخلي على منصب البطريركية بين بطريرك أنطاكية إيميرى وأحد رجال الدين، ويُدعى ثيودور وابن Theodore Wahbun الذي طلب من هرقل بطريرك بيت المقدس مساعدته لإخضاع كنيسة أنطاكية اليعقوبية للبابوية، وذلك مقابل أن يصبح ثيودور بطريركاً لها. ويذكر ميخائيل السوريانى أن هرقل وافق على هذا الاقتراح وخاصة أن ثيودور أرفق ضمن اتفاقه عرض بتقديم ألف دينار هبة منه إلى دير مريم المجدلية في القدس. وتم الاتفاق على أنه سوف يتسلم المنصب بعد عودته من رحلة هرقل إلى الغرب[٢]. ولم يُكتب النجاح لتلك المحاولة، وظل دير مريم المجدلية تحت سيطرة رجال ميخائيل السوريانى، وهو الدير الذي سيلعب دوراً إبان تتويج سيبيلا ملكة لبيت المقدس سنة ١١٨٦م[٣].

كما أبدى هرقل براعة . أيضاً- في الأمور المالية وتدبير أمور البطريركية، فيُذكر أنه سبق تعيينه هو ووليم الصوري عام ١١٨٣م كأوصياء على الحصيلة المرتقبة للضرائب العامة التي فرضت على المملكة اللاتينية، وكذلك الإشراف الكامل على كافة الهبات التي تقدم لكل من المدينة المقدسة وعكا، وقد اختص هرقل بأمور بيت المقدس، أما وليم الصوري فقد وكل بمدينة عكا. وقد لاحظ المراقبون دقة النظام الإداري الذي عمل به البطريرك هرقل، وقد ربطوا بين الضريبة التي فُرضت في القدس والضريبة التي كانت مفروضة في كل من إنجلترا وفرنسا

---

(١) كنيسة اليعاقبة: تبنى مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م وجهة نظر كنيسة أنطاكية بدعم من البابا لأون الكبير (٤٤٠- ٤٦١م) والإمبراطور مارقيان (٤٥٠- ٤٥٧م) وأطلق على أتباع المجمع الخلقدونى لقب مكللين في حين أطلق أنصار المجمع على المعارضة لقب يعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعى، وهو تلميذ البطريرك ديسقورس، وأطلق يعاقبة مصر على أنفسهم لقب أقباط مصريين وتلاشى اسم يعاقبة اليوم ولا يعرفه إلا الباحثون في التاريخ. انظر: وسام كبكت: "كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك" ضمن مجلد تاريخ الكنيسة . م٢، ط١، دار المشرق، بيروت ١٩٩٧م ص٤٧- ٤٨.

(٢) Chronique de Michel Le Syrian, Patriarche Jacobite Antioche (1166- 1199) ed, and Trans, by Chabot (J.B.) Tom III, (Paris 1905), PP.386- 387.

(٣) Eracles: Op.Cit., PP27- 28; Prawer: Latin Kingdom, P.228.

التي صدرت عام١١٦٦م، وربط المراقبون بين وجود هرقل في هذا التاريخ في أوربا وفكرة فرض الضريبة في القدس بالشكل المتبع في كل من إنجلترا وفرنسا[١].

لم يتوقف الأمر عند ذلك فالآراء تميل . أيضاً . إلى أن ظهور العملة فئة المائة في القدس عام ١١٨٥م يكمن في وجود البطريرك هرقل في أوربا، وبتأثير مقابلاته التي عقدت مع عواهل أوربا سواء في فرنسا وإنجلترا، وهى نفس الفترة التي أُقرت خلالها الوحدة المالية فئة المائة[٢]. وهذه شهادة من المراقبين الذين قاموا بدراسة تلك الضرائب التي أشرف علي تحصيلها البطريرك هرقل، والتي تدل على حدة ذكائه ومحاولاته في تطوير الأنظمة المالية في بطريركية القدس وجعلها تتماشى مع النظم الأوربية التي شاهدها أثناء رحلته إلى أوربا.

أما عن نشاط هرقل الحربي ومشاركته في الأعمال العسكرية في تلك الفترة التي تولى فيها بطريركية بيت المقدس، فمن المعروف أن دور البطريرك هو يتمثل في رفع الروح المعنوية لدى المحاربين وهو يرفع الصليب المقدس كي تحل البركات على المحاربين الصليبيين، ولذلك نذكر عنه أنه شارك الملك بلدوين الرابع في صد هجوم صلاح الدين عندما التقى الجيشان أسفل قلعة فرسان الاستبارية والمعروفة بكوكب الهوى[٣]، وقد صمد الصليبيون

---

(١) Cazel: "The Tax of 1185 in Aid of the Holy land" in Speculum, Vol 30, PP.391- 392.

(٢) Ibid,P.392.

(٣) كوكب الهوي يقع إلي الشمال من بيسان، ويبعد عنها نحو احد عشر كيلومتراً، وترتفع نحو ثلاثمائة متر عن سطح البحر، وتقوم فوق مدينة يرموت الكنعانية وتعني الارتفاع، وتحيط بها أراضي البيرة ووادي البيرة وكفرا وجبول، وأقام عليها الصليبيون حصن الهوي وفتحه المسلمون علي يد صلاح الدين. انظر،مولر ولفونج وينر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد، ط دمشق (١٩٨٤م)،ص٣١-٣٢.

لهجمات صلاح الدين، دون أن تنجح هجماتهم المضادة في كسر صفوف المسلمين، وفى آخر النهار انسحب كل جانب زاعماً إحراز النصر على الآخر[١].

وقد رافق البطريرك هرقل الملك الصليبي في حملته العسكرية في وادي يزرعيل[٢] في حملة فاشلة أوائل عام ١١٨٣م. فقد اختلف بلدوين مع جاى لوزجنيان زوج أخته سيبيلا[٣] وطلب من أخته إبطال زواجها من جاى لوزجنيان[٤]، وأصدر أوامره إلى البطريرك هرقل لكي يتخذ كافة الإجراءات لإحضار جاى وزوجته إلى حضرته، ليبين لهما أمامه عدم شرعية زواجها ويعلن بطلانه. غير أن البطريرك أخذ يماطل في تنفيذ رغبة الملك، بل قام بلفت نظر جاى إلى ضرورة الابتعاد وزوجته عن القدس حيث وجود الملك[٥].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٦٢؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين،تحقيق وتعليق:إبراهيم الزيبق. مؤسسة الرسالة،ط.بيروت ١٩٩٧م، ج٢، ص٨٥؛ رانسيمان: الحملات الصليبية، ج٢، ص٤٨٩.

(٢) يزرعيل (زرعين) وتدعي أيضا زعاريم وأطلق عليها وليم الصوري اسم جرين وتقع علي بعد ستة أميال من مدينة الناصرة بفلسطين. انظر يوحنا فورزبورج: وصف الأراضي المقدسة،ص٣٤-٣٥حاشية(٧)؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية،ج٤،ص٣٢٠.

(٣) شعر الملك بلدوين أن هواء صور يناسبه أفضل من مرتفعات القدس ذات الرياح، فسأل جاى أن يتبادلا المدينتين. فرفض جاى وتملكته نوبة من الغضب، واستدعى أهم رجاله وأخذ نصيحتهم بخلع جاى من الوصاية وبدلا من ذلك تم إعلان بلدوين الخامس ابن أخته سيبيلا من زوجها الأول وصياً على المملكة، وكان طفلا في السادسة من عمره.انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٤، ص٣٣٠؛ رانسيمان: المرجع السابق، ج٢، ص٤٩٨؛

Riley Smith: The Feudal Nobility, PP.106- 107.

(٤) L'Estoire d'Eracles , in R.H.C., Occ., Tom II, P.1.

(٥) Kedar: The Patriarch., P.191.

على أية حال، وصل بلدوين الرابع إلى مدينة عكا[١] حيث دعا إلى عقد مجلس مشورة ضم جميع بارونات المملكة والأساقفة، وكان ضمن بنود هذا المجلس الاتفاق على إرسال بعثة إلى أوربا لطلب المعونة المادية والبشرية للمملكة. غير أن قدوم البطريرك هرقل وبصحبته عدد من فرسان الاسبتارية والداوية ومقدميهم لفتوا انتباه الحاضرين إلى موضوع آخر غير البعثة التي ستتوجه إلى أوربا. فقد طلبوا رضا الملك عن الكونت جاى لوزجنيان[٢]. واستناداً إلى حولية تاريخ هرقل فإن البطريرك جثا على ركبتيه متضرعاً إلى الملك أن يعدل عن عزل جاى من الوصايا قائلاً: "قد تطيح بالجميع وتفرط عقدهم أمام مخاطر خارجية متربصة". لكن الملك لم يستمع لهم. ولم يستجب إلى ما طلبوه. فضاقت صدورهم من الملك ، وتركوا الجلسة. ورحلوا عن عكا عازمين على أن يبعثوا برسائل إلى ملك فرنسا لويس السابع يرجوه أن يأتي لإنقاذ المملكة الصليبية من حرب أهلية وشيكة قد تدمرها[٣]. في حين يذكر رانسيمان أن الملك بلدوين كان غاضباً من البطريرك هرقل ومقدمي الإسبتارية والداوية لما أظهراه من إبطاء في السفر إلى الغرب الأوربي لطلب مساعدات للمملكة[٤].

---

(١) عكا هي إحدى المدن الفلسطينية الشهيرة. وهى مدينة ساحلية تبعد عن حيفا خمسة عشر فرسخاً. وهى مدينة كبيرة قوية التحصين. تمتلك ميناء جيداً للملاحة. وكانت تطل من جهة البر علي سهل فسيح غني بمنتجاته الزراعية يحميه عدد من التلال المرتفعة من الشمال والشرق والجنوب. ومدخل الميناء محمي بسلسلة تغلق وتفتح. والمدينة محاطة بسور ضخم من جهة الشمال والشرق. وكان له عدة أبواب كل منها محاط ببرجين. للمزيد انظر: دانيال الروسي: وصف الأرض المقدسة في فلسطين (١١٠٦-١١٠٧م). ت. وتعليق: سعيد البيشاوي. دار الشروق. ط.عمان ٢٠٠٣. ص٨٨؛ يوحنا فورز بورج: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين. ت سعيد البيشاوى. عمان (١٩٩٧م) ص٢٤ حاشية رقم(١) ناصر خسرو: سفر نامة. ت يحيي الخشاب. (القاهرة.١٩٩٣م) ص٦١. ابن جبير: رحلة ابن جبير (بيروت.١٩٨٠م) ص٢٧٦.

(٢) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري. ص١٨-١٩؛

ونظراً للظروف السيئة التي كانت تمر بها المملكة من انقسام وسوء حالة الملك الصحية، . في أوائل عام ١١٨٤م . أرسل الملك بلدوين الرابع إلى ابن خالته ريموند أمير طرابلس لمباشرة إدارة الحكومة. وفي نفس الوقت تم إرسال بعثة ملكية لطلب العون من الغرب الأوربي، وقد تألفت هذه البعثة من البطريرك هرقل ومقدمي الاسبتارية والداوية، وأبحرت إلى إيطاليا في ربيع عام ١١٨٤م[١].

وتُعد هذه البعثة هي الثالثة للبطريرك هرقل يتوجه فيها إلى الغرب الأوربي كمبعوث رسمي وهذا على مدار اثني عشر عاماً، لكن هذه المرة اختلفت عن سابقاتها في عام ١١٧٨م، وعن البعثة الأولى سنة ١١٧٢م. لأنها جعلت من هرقل محط الأنظار لشهور عديدة من خلال منصبه كرئيس ومتحدث رسمي باسم البعثة، حيث دافع عن قضية تعرض المملكة اللاتينية للخطر في حضرة البابا لوكيوس الثالث في روما. ثم أمام الإمبراطور فردريك الأول بربا روسا Fredrik I Barbarosa (١١٥٢- ١١٩٠م)[٢] في فيرونا بألمانيا في نوفمبر عام ١١٨٤م. وفي يناير ١١٨٥م توجه هرقل مع الوفد الملكي إلى باريس حيث تقابل مع الملك فيليب الثاني اغسطس[٣] Philip II Augustus (١١٨٠-١٢٢٣م) وطلب منه المساعدة في إنقاذ المملكة من الأخطار المحدقة بها. وأخيراً وفي أبريل من نفس العام حطت أقدام البعثة إنجلترا، ووقف هرقل متحدثاً في حضرة الملك هنري الثاني Henry II

---

(١) Kedar: Op.Cit., P.191.

(٢) إمبراطور ألمانيا وُلد عام ١١٢٣م. دخل في نزاع كبير مع البابوية في مسألة التقليد العلماني، وشارك في الحملة الصليبية الثالثة على رأس الشق الألماني منها رغم تقدم سنه، وغرق أثناء استحمامه في أحد أنهار آسيا الصغرى في يونيه ١١٩٠م. للمزيد انظر:أتو أسقف فريزنج: ما ورد عنه في الحروب الصليبية، ت سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج٢٨، (دمشق ١٩٩٧م) ص ٣٤٥- ٣٦١؛ المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص١٦٣، ١٧٤؛ سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج١، ص٣٧٥- ٣٨٧.

(٣) فيليب الثاني: هو ابن لويس السابع، ولد سنة ١١٦٥م وولى الحكم بعد وفاة والده سنة ١١٨٠م. شارك في الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسد، ثم توفى سنة ١٢٢٣م.
للمزيد عنه انظر: Hutton: Philip Augustus, (London 1896) PP.15- 23.

(١١٥٤- ١١٨٩م)[١]. لقد كان هذا المشهد لأحد بطاركة بيت المقدس متنقلاً بين بلدان أوربا الغربية طالباً المساعدة لإنقاذ مملكة اللاتين بالقدس، ومقدماً لمفاتيح كنيسة القيامة لملوك أوربا، ومبشراً بالصليب المقدس، كل هذا كان له بالغ الأثر في نفوس عواهل أوربا[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد قوبلت البعثة بأسمى آيات الترحيب من قبل ملوك الغرب، وتناقشوا معها في الخطط وترتيبات إرسال حملة صليبية جديدة، ولكنهم كانوا يسوقون الذرائع التي تحول بينهم وبين قيادة تلك الحملة المرتقبة[٣]. وعلى الرغم من الإشادة الكبيرة بجهد هرقل ودوره المحوري في هذه البعثة، حتى ذكر أحد المؤرخين قائلاً: "إن جهد هرقل الفردي هو الذي جعل من بعثته واحدة من أفضل الأحداث المسجلة في التاريخ الصليبي[٤]. فإن تحيز المؤرخ أرنول قد بدا واضحاً إذ نراه يبالغ كثيراً في ذكر نقائص هرقل سواء كانت حقيقية أم ملفقة، فقد تجاهل أمر البعثة تماماً في كتابه ولم يتطرق لها من قريب أو بعيد، وهذا دليل على تحيزه وكراهيته للبطريرك. هذه الأعمال الجيدة التي قام بها هرقل ربما ترد على بعض المصادر التي حاولت النيل من حنكته وقدرته ونشاطه السياسي المؤثر.

- هرقل ومسألة فرض السيادة الأوربية على القدس:

هدف البطريرك من خلال مقابلاته مع ملوك أوربا إقناع أحدهم بضرورة فرض سيادته على المملكة الصليبية المتصدعة داخلياً، والمحاطة بالأخطار خارجياً. وقد دار الكثير من

---

(١) هنري الثاني: هو هنري بلانتو جنت ابن ماتيلدا ابنة هنري الأول. تولى حكم إنجلترا تحت اسم هنري الثاني بتأييد ومساندة البابوية في سنة ١١٥٤م بعد وفاة الملك ستيفن ١١٥٣م. واستمر حكمه حتى توفى سنة ١١٨٩م. للمزيد انظر: روجر أف ويندوفر: ورود التاريخ ضمن الموسوعة الشامية، ج٣٩، ص١٩٣- ١٩٤؛ زينب عبد المجيد عبد القوى: الإنجليز والحروب الصليبية ١١٨٩- ١٢٩١م، ط١، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٥٥. Tyerman: England and the Crusades, P.36- 38.

(٢) Kedar: Op.Cit., P.191.

(٣) Radulph of Diceta: Heraclius, Vol.II, PP.32- 33.

(٤) Kedar: OP.Cit., P.192.

التساؤلات فيما إذا كان البطريرك هرقل مفوضاً أو مكلفاً بتحقيق هذا الهدف، لكن الواضح أنه على الرغم من تواصل هرقل مع الملك الصليبي فإنه لم يتحدث باسم الملك، بل قام هو بذلك من تلقاء نفسه، فقد قام الملك الصليبي بلدوين الرابع قبل عامين مطالباً حكام أوربا بحماية بلاده على الرغم من أن الملك كان متماسكاً صحياً، أما الآن وبمرور عامين فظروف المملكة تغيرت تماما؛ نظراً لمرض الملك وعدم قدرته على قيادة المملكة، إضافة إلى الصراعات المقبلة عليها المملكة الصليبية.

على أية حال، قام البابا لوكيوس الثالث بإعداد رسالة إلى الملك هنري الثاني حملها هرقل نفسه أثناء توجه البعثة لمقابلته، وقد شرح فيها البابا ملخصاً لما دار في مجمع فيرونا الديني من مناقشات. وقد أكد البابا في مضمون رسالته أن الأراضي المقدسة ينقصها حماية الملك هنري، وأن أهلها من الصليبيين يضعون أملهم الوحيد على تأييده لهم[١]. وقد ذُكر على لسان ما كتبه أسقف ويلز جيلارد أن البطريرك هرقل قدَّم هذا العرض (حماية الأراضي المقدسة) نيابة عن الملك الصليبي، ومقدمي الداوية والاستبارية، وبموجب استحسان رجال الدين، وتأييد الشعب الصليبي داخل فلسطين، وتأييد هرقل نفسه عندما فقد الأمل في الملك بلدوين المريض وكل المحيطين به[٢].

ومن خلال هذه البعثة وأحداثها في الكثير من البلدان الأوربية برزت شخصية البطريرك هرقل بصورة أوضح من ذي قبل، حيث ظهرت أحاسيس هرقل الداخلية ، ففي بداية تحرك البعثة جثا هرقل على ركبتيه أمام الملك بلدوين الرابع[٣]، وقد تكرر نفس المشهد أمام الملك الإنجليزي هنري الثاني متوسلاً بالدموع، طالباً منه القدوم بنفسه لإنقاذها. وقد سجلت كتابات المؤرخين جديته وصلابته وشجاعته وهو في البلاط الملكي الإنجليزي محاوراً الملك هنري بكل لباقة وشجاعة، وذلك عندما قدَّم له الملك المال، فرد عليه قائلاً: "نحن نطلب رجلاً

---

(١) Ibid.P.192.

(٢) Ibid., PP.192-193.

(٣) L'Estoire d'Eracles, In R.H.C., CC, Tom II, PP.2-3.

يحل محل الاحتياج المادي، وليس مالاً في حاجة إلى رجل". فقد برزت مقدرته الفائقة في البلاغة بالشكل الذي جعل حديثه مؤثراً في مستمعيه[١].

وعلي الرغم من كل ذلك فقد أنهت البعثة أعمالها في أوربا، وعادت خالية الوفاض عقب الوعود البراقة التي وُعدوا بها، فكان كل ما تحصلوا عليه عند عودتهم عددٌ قليل من الفرسان الذين حملوا الصليب وتوجهوا إلى الشرق[٢]؛ الأمر الذي أثار علامات الاستياء الشديدة في وجه البطريرك هرقل عندما عاد إلي الشرق[٣].

على أية حال، فقد عادت البعثة إلى القدس في أول أغسطس ١١٨٥م، في وقت كان فيه الملك الصليبي طريح الفراش لا يستطيع الحركة، وكان قد أعلن وصيته في وقت مبكر من هذا العام، فأوصى بأن يخلفه على العرش ابن أخته بلدوين الخامس تحت وصاية ريموند الثالث كونت طرابلس، وقد أقسم البارونات على إنفاذ رغبة الملك، وكان من بينهم البطريرك هرقل العائد تواً من رحلته إلى أوربا، وقام بتتويج الطفل بلدوين الخامس في كنيسة القبر المقدس[٤].

توفى الملك الصليبي بلدوين الرابع في أواخر عام ١١٨٥م، وانتقل الحكم إلي بلدوين الخامس تحت وصاية ريموند الثالث، ولم يكن نشاط البطريرك هرقل فعالاً في تلك الفترة بالقدر الكافي، وكل ما ذُكر عنه من نشاط في تلك الفترة أنه ساند قضية امتيازات التجار الجنويين في المملكة وخاصة أن البابا أوربان الثالث (١١٨٥- ١١٨٧م) أرسل إليه في مارس ١١٨٦م طالباً منه إقناع حكومة المملكة بأن تُعيد الأملاك التي تم مصادرتها من الجنويين في

---

(١) Kedar: Op.Cit., P.193.

(٢) كان الملك هنري الثاني مشغولا بعدة مشاكل، وربما كانت السبب في عدم خروجه على رأس حملة صليبية، ومن بينها انشغاله بمقاومة هجمات المسلمين في الأندلس، ولعل حملته التي وجهها إلى الأندلس كانت السبب الأساسي في تأجيل حملاته لمساندة مملكة بيت المقدس. إضافة إلى انشغاله بنزاعه مع أبنائه وضد لويس السابع ملك فرنسا. انظر: Hayer: Henry II,PP.721- 723.

(٣) Radulph of Diceta,PP.32-33.

(٤) Ernoul: Op.Cit., PP.114- 115; L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP. 7- 8.

المملكة، وإعطاؤهم كافة الحقوق التي كانوا يتمتعون بها من قبل[١]. وفيما يبدو أن البطريرك هرقل نجح في تحقيق مطالب البابا أوربان الثالث واستعادة حقوق الجنوية في المملكة[٢].

توفي الملك بلدوين الخامس في عكا في نهاية أغسطس ١١٨٦م، ولم يتجاوز التاسعة من عمره[٣]، وبعد وفاته عاد نشاط البطريرك هرقل إلى الظهور مرة أخرى، خاصة في الدور الذي لعبه في تتويج جاى لوزجنيان وزوجته سيبيلا على عرش مملكة بيت المقدس. فتذكر المصادر أن ريموند الوصي كان حاضراً وفاة بلدوين الخامس ومعه جوسلين، وطلب الأخير من ريموند التوجه إلى طبرية[٤] لدعوة بارونات المملكة للاجتماع به هناك؛ حيث المأمن من مؤامرات البطريرك هرقل، ولكي تُنفذ وصية الملك بلدوين الرابع[٥].

سارع حزب البطريرك هرقل والذي ضم إلى جانبه جوسلين وأرناط إلى التخلص من ريموند وذلك بإعلان سيبيلا ملكة، وأرسل إليها للحضور هي وزوجها جاى لوزجنيان، وقد أكد لها البطريرك هرقل مساندة المؤسسة الكنسية، وكذلك مقدم الداوية، كما كان جمهور القدس يحمل تعاطفاً مع سيبيلا بوصفها صاحبة الحق الوراثي في العرش؛ فأخوها بلدوين الرابع وابنها بلدوين الخامس، وكانت نقطة الضعف ترتكز في كراهية النبلاء لزوجها جاى لوزجنيان[٦].

وقد أمر البطريرك هرقل بإغلاق بوابات مدينة القدس بمساعدة فرسان الداوية، لمنع أي هجوم محتمل يقوم به البارونات المجتمعون في نابلس بقيادة ريموند الثالث، وأعد البطريرك العدة لتتويج سيبيلا، وقد دعاها هرقل مخاطباً: "هيا سيدة الشهرة والممالك والمصالح

---

(١) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت أحمد محمد رضا، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٨٥م)، ص٣١٥.

(٢) Kedar: Op.Cit., P.195.

(٣) Ernoul: Op.Cit., P129.

(٤) تقع طبرية على بحر الجليل، وكان قديماً يسمى البحر باسمها، وسميت طبرية على شرف الإمبراطور الروماني طيبريوس، وتمتاز بآثارها وخصوبة وتنوع محاصيلها.انظر: بورشارد: وصف الأراضي المقدسة، ت سعيد البيشاوي،ط١ (عمان،١٩٩٥م)، ص٩٠- ٩١.

(٥) رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٥٠٦.

(٦) رانسيمان: المرجع السابق، ج٢، ص٥٠٦.

الشخصية التي تخدم المملكة"[١]. ويُذكر أن البطريرك طلب من سيبيلا قبل تتويجها الطلاق من جاى والزواج من رجل نبيل آخر[٢]. وربما يكون قد أخذ منها وعداً بذلك، وقام البطريرك بتتويج سيبيلا، ولكنه وضع تاجاً ثانياً إلى جانبها. ويذكر رانسيمان أنه بعد أن وضع التاج فوق رأسها دعاها لاستخدام التاج الثاني لتتويج الرجل الذي تظنه جديراً بحكم المملكة[٣].

استغلت سيبيلا الفرصة وأجابت بدهاء بأنها لا تستطيع أن تنعم بالتاج إلا على رأس زوجها جاى لوزجنيان، وعلى هذا فقد تُوج جاى كملك بناءً على أمنية وقرار من زوجته سيبيلا. وقد أثارت مسألة سماح البطريرك للملكة سيبيلا بوضع تاج على رأس زوجها، وقيامه بمسحه بالزيت شكوك كبيرة، فقد أظهر ذلك هرقل متخطياً للعادات والأعراف في تتويج الملوك بدون ذكر سبب مقنع، ولقد فسر البعض هذا الحدث بأن هرقل كان غير راضٍ أن يضع التاج على رأس جاى المكروه لدى شعب القدس الصليبي[٤].

ومن الواضح أنه كان هناك تواطؤ من البطريرك في عملية التتويج؛ لأن هرقل كان غير متقبل لاستمرار ريموند كونت طرابلس في عملية الوصاية على المملكة، وخاصة بعد فشله في إقناع ملوك أوربا للقدوم، وجعل القدس تعتمد مباشرة على قوة أوربية. ومن هنا قرر هرقل تدعيم جاى لوزجنيان؛ لكونه الأفضل من بين المرشحين المحليين، واستخدم مكيدة الطلاق الذي طلبه من الملكة، مجرد وسيلة لهزيمة خصوم جاى لوزجنيان الذين كانوا يترقبون اللحظة الحاسمة لتتويج سيبيلا بمفردها[٥].

لا شك أنه كان من مصلحة هرقل وجود سيبيلا وزوجها على رأس المملكة، فهذا معناه استمراره في منصب البطريركية؛ لذلك لا غرابه في إسراعه لتتويج سيبيلا ملكة على القدس؛

---

(١) Ernoul: Op.Cit., P.134; Estoire de Eracles, P.23.

(٢) وجدت هذه الرواية القبول، لأن البطريرك أملريك السابق لهرقل رفض تتويج عمورى الأول والد سيبلا إلا بعد انفصاله عن زوجته (والدة سيبلا). انظر: Kedar: Op.Cit., P.197.

(٣) تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٥٠٧.

(٤) Kedar: Op.Cit., PP.196- 197.

(٥) Ibid.P.198.

ليقطع الطريق عن رجلٍ قوي مثل ريموند الثالث أو غيره من الأمراء الأقوياء الطامعين في العرش .. ولاشك أن هذا التتويج كان سببا من أسباب اضمحلال وسقوط مملكة بيت المقدس في حطين على يد صلاح الدين. وعلى أية حال، فقد أدى الجميع فروض الولاء لملكهم وملكتهم الجديدين، وإزاء هذا التتويج رضخ ريموند وحزبه للأمر الواقع. وقد قام الملك جاى والبطريرك هرقل بإرسال مبعوثين في إبريل ١١٨٧م إلى طبرية لمصالحة ريموند وتلطيف الأجواء[١].

وبينما كانت المملكة تعصف بها المشاكل الداخلية، كانت الهدنة مع المسلمين[٢] تزداد تماسكاً، وكان باستطاعة الملك جاى تصحيح الأوضاع بالمملكة؛ لأن هذه الهدنة عادت بالخير الوفير لكلتا المملكتين. فقد ارتحلت قافلة ضخمة من القاهرة في طريقها إلى دمشق في نهاية عام ١١٨٦م، حيث انقض عليها ريجينالد دى شاتيون (أرناط) فقتل عدد من الجنود المرافقين لها، وأخذ التجار وممتلكاتهم إلى قلعة الكرك، ولما علم صلاح الدين بذلك أرسل إلى أرناط يطلب منه إطلاق سراح السجناء، وتعويضهم عن خسائرهم، ورفض أرناط طلب صلاح الدين، كما رفض طلب الملك الصليبي بالإفراج عن هؤلاء السجناء، وأصبحت الحرب وقطع الهدنة أمراً متوقعاً [٣].

وأصبحت المملكة منقسمة على أمرها في مواجهة نذر الحرب القادمة، التي بدأ الطرفان الاستعداد لها، وقد طلب الملك الصليبي من البطريرك هرقل القدوم إلى عكا، ومعه الصليب

---

(١) Ernoul: Op.Cit., PP.129- 136; L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP.25- 31.

(٢) قرر الملك بلدوين الرابع وهو على فراش الموت عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات. وقد تم توقيعها في مارس ١١٨٥م، وقد وقعها ريموند الثالث نيابة عن الملك الصليبي.انظر: Gibb (H.): "The Rise of Saladin" in Setton: The History Of The Crusades, Vol.I, PP. 580- 582.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٤٢؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص٨٥؛ Estoire d Eracles, Tom II, P.34.

المقدس. لكن هرقل رفض القدوم متعللا بوعكة صحية[١]، وعهد بالصليب المقدس إلى رئيس دير رهبان القبر المقدس ليسلمه لأسقف عكا[٢]. وعلي الرغم من اتهام البطريرك بالتقاعس عن المشاركة في المعركة، لكنه قام بإرسال خمسمائة جندي للانضمام للجيش الملكي، وهو العادة التي كانت تقدمها بطريركية بيت المقدس أثناء المعارك[٣].

- محاولات هرقل إنقاذ القدس من السقوط في يد صلاح الدين:

مهما يكن من أمر الجيش الصليبي، الذي لقي هزيمة ساحقة في حطين في الرابع من يوليو ١١٨٧م، فقد نجت من القتل أعداد قليلة وقعت في الأسر، وعلي رأسهم الملك الصليبي نفسه، وعدد كبير من نبلاء وأمراء المملكة، الذين اقتيدوا إلي خيمة صلاح الدين التي نصبت في ساحة المعركة[٤]. وبعد هذا الانتصار المدوي وما تبعه من تهاوي الكثير من المدن والقلاع الصليبية، وسقوطها في يد قوات صلاح الدين، توجه صلاح الدين إلي بيت المقدس في سبتمبر ١١٨٧م، حيث تم إحكام حصار المدينة المقدسة، وهناك استقبل صلاح الدين وفدا سرياً من أهل القدس لمناقشة شروط رفع الحصار، لكن الوفد رفض التسليم، "وأقسم صلاح الدين بأنه سوف يأخذها(القدس) بالسيف"[٥].

ساءت أحوال المدينة المقدسة مع تشديد الحصار عليها من جهة وقلة المدافعين عنها من جهة أخري، وجاءت النجدة لأهل القدس في شخص باليان الأبليني، وكان من القلائل الذين نجوا من معركة حطين وهربوا إلي مدينة صور[٦]، فقد قدم إلي القدس وطلب الإذن من

---

(١) يذكر رانسيمان أن هرقل فضَّل كما قال عنه أعداؤه البقاء مع محبوبته باشيا عن المشاركة في الدفاع عن المملكة. انظر: تاريخ الحملات الصليبية، ج٢، ص٥١٣.

(٢) رانسيمان: المرجع السابق، ج٢، ص٥١٣؛ Kedar: Op.Cit., P198.

(٣) سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس،ص٣٥١.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج١٠، ص١٤٦-١٤٨؛ أبو شامة: الروضتين،ج٢، ص٨٩-٩٠؛ رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية،ج٢، ص٥١٥-٥١٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج١٠،ص١٤٥.

(٦) صور: هي مدينة تقع علي ساحل البحر المتوسط، أعيد بناؤها علي يد الفينيقيين، والمدينة ذات شكل دائري، تنتصب فوق البحر فوق صخرة قوية مسورة من جميع الجهات القريبة من البحر باستثناء الجهة

صلاح الدين لدخول المدينة لإحضار زوجته وأولاده للعودة بهم إلي صور، ولبي صلاح الدين طلبه شريطة أن يمضي في القدس ليلة واحدة ولا يحمل سلاحا[١]. وعندما دخل باليان المدينة وجد البطريرك هرقل ومقدمي الاستبارية والداوية يهيئون المدينة للدفاع والمقاومة، ولكن كان ينقص المدينة القائد الذي يمكن أن يقود المقاومة، وعندما وجدوا باليان طلبوا منه البقاء معهم للدفاع عن المدينة المقدسة[٢].

قرر البطريرك ورفاقه من المقاومين عدم التسليم، لذلك انضمت إليه جموع المدينة في مطالبة باليان البقاء، وتولي زمام القيادة وتحمل مسئولية الدفاع عن المدينة المقدسة، وقد انضم القساوسة ورجال الدين في حمل السلاح إلي جانب المدافعين[٣]، وعلي الفور قام هرقل بتبرئة باليان من اليمين الذي أقسمه أمام صلاح الدين بعدم البقاء في المدينة، وهذه سابقة من نوعها[٤]، علاوة علي ذلك فلقد وافق هرقل علي مطلب باليان بأن يتم الاعتراف به ملكاً علي القدس، وأن يتلقي الإجلال والولاء، علي الرغم أن الملكة سيبيلا كانت لا تزال بالمدينة[٥]. فلقد كان هرقل يريد إنقاذ المدينة المقدسة، فلجأ إلي الموافقة علي الحل السياسي الأكثر جوهرية، لذلك قدم إلي باليان كامل تأييده، فقام هرقل بتفكيك أغطية القبر المقدس الفضية.

=الشرقية، وكان للمدينة أهمية دينية؛ لأنها مقر إقامة رئيس الأساقفة. للمزيد انظر: ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة،ص١٤٧، بورشارد: وصف الأراضي المقدسة، ترجمة: سعيد البيشاوي، ط.عمان ١٩٩٥م ،٤٣-٤٤؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير،ص٢٧٧-٢٧٨. محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون في العصور الوسطي، ط.القاهرة ١٩٩٢م، ص٣٩.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج١٠،ص١٥٥.

(٢) Arnoul: Op.Cit., PP. 174-175; L'Estoire d'Eracles, Tom, II, PP. 81-84.

(٣) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد) ت حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب(٢٠٠٠م)،ج١،ص٤٢.

(٤) Kedar: Op. Cit, P. 203.

(٥) L'Estoire d'Eracles .P. 23;

وذلك لاستخدامها في سك العملات المعدنية التي سوف تدفع تغطية لمطالب المدافعين عن المدينة المقدسة يومياً[١].

ولم تتوقف جهود البطريرك هرقل عند هذا الحد، فذكر عنه أنه أرسل إلي البابا أوربان الثالث Urban III (١١٨٥-١١٨٧) عقب هزيمة حطين، وقبيل حصار بيت المقدس من قبل قوات صلاح الدين، يطلب منه المساعدة المالية والبشرية الفورية التي تساعدهم في صد هجوم القوات الإسلامية عليها، وحذر البابا بأنه لا يمكن للمدينة المقدسة ولا مدينة صور الصمود لأكثر من ستة أشهر فقط علي أقصي تقدير، مشيراً للحاجة الملحة لأهل القدس الذين قيدت حركتهم، وأصبحت قاصرة علي داخل الأسوار؛ لتوقعهم وصول قوات صلاح الدين في أي لحظة، وفي نهاية رسالته أوضح هرقل للبابا أن هزيمة الصليبيين في حطين وضياع الصليب المقدس كان نتيجة غضب إلهي غير مفسر، وليس كعقاب لخطايا المسيحيين[٢]. وهو ما يؤيده المؤرخ المجهول عندما ذكر أن صلاح الدين لم يدع وسيلة من وسائل تحقيق رغبته في دخول القدس إلا واتبعها؛ مما ضاق الأمر بالصليبيين داخلها[٣].

استمر البطريرك هرقل في تعزيز المقاومة داخل أسوار القدس بمشاركة باليان الإبلينى، وذلك خلال ثلاثة عشر يوماً من بداية الحصار. وبعد تمكن المسلمين من إحداث ثقب داخل أحد الأسوار[٤]. فقد ذكر أحد المدافعين عن المدينة أنه سمع أن البطريرك هرقل وعدداً من أغنياء المدينة وعدوا بدفع خمسة آلاف بيزنت Bezants[٥]، وأسلحة سوف توزع على نحو

---

(١) Ernoul: Op. Cit, PP. 185- 186

(٢) Kedar: Op. Cit, P. 199.

(٣) ذيل وليم الصوري، ص ١١٠.

(٤) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج٢، طبعة وادي النيل (١٢٨٨) ص٩٢-٩٥.

(٥) البيزنت: هي واحدة من العملات الذهبية الشائعة في العصور الوسطى، وسميت نسبة إلى بيزنطة، والبيزنت يعادل نحو ثلاثة جرامات ونصف من الذهب. انظر: يعقوب الفترى: تاريخ بيت المقدس، ص١١٠ حاشية رقم (٢) ؛ ستيفن رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ت عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٦١م)، ص٢١١؛ سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنسية، ص١١٨- ١١٩ حاشية رقم (٤).

خمسين رقيبا لحراسة الحائط المثقوب في الليلة الواحدة. ويتعجب أحد المؤرخين قائلاً:" حتى بعد هذا العرض السخي لم يستطع هرقل أن يجد خمسين مدافعاً"(١). وهو ما يدل على يأس المدافعين عن المدينة أمام شدة الحصار المفروض عليها.

تشاور المدافعون عن المدينة فيما بينهم فيما يجب عليهم عمله، ثم تشاوروا مع البطريرك هرقل وباليان الإبلينى، وأخبروهما برغبتهم في الخروج تحت جنح الظلام لمهاجمة الجيش الإسلامي المحاصر للمدينة؛ وذلك لأن الموت في ساحة القتال أشرف عندهم من الوقوع في الأسر ملطخين بالعار، "وأن الأشرف لهم أن يلقوا منيتهم في البقعة التي لقي فيها السيد المسيح منيته من أجلهم، وهذا أشرف لهم من تسليم مدينتهم للمسلمين"(٢).

في تلك اللحظات الحاسمة استخدم البطريرك هرقل خبرته وبلاغته في المرافعة لإقصاء أهل القدس عن القيام بهذه الخطوة اليائسة، مستخدماً حكمته في الإشادة في البداية بخطتهم مؤكداً على الواجب المسيحي لمستمعيه تجاه نسائهم وأطفالهم وعجائزهم، متحاشياً بذكاء أية إشارة إلى حفاظهم على أرواحهم(٣). ويؤكد المؤرخ المجهول أن البطريرك ذكر مستمعيه قائلاً: "أيها السادة ما أحسب هذا الرأي إلا رأياً خطيراً؛ لأن هناك اعتباراً آخر، فلو كان خلاصنا بتعريض أنفسنا للخطر، فليس هذا بالعمل الصحيح، فإنه يوجد إزاء كل واحد في المدينة خمسون امرأة وطفلاً، فلو متنا أخذ المسلمون النساء والصغار، وربما لم يقتلوهم لكن يردونهم عن ملتهم و إيمانهم بعيسى المسيح، فيخسرهم الرب عن بكرة أبيهم"(٤)، ولذلك رأى التفاوض من أجل الخروج الآمن للجميع والذهاب إلى البلاد التي في يد الصليبيين، فهذا أجدى من الحرب الخاسرة(٥). وقد انتقد المؤرخ جروسيه هذا العرض من قبل البطريرك هرقل

---

(١) Kedar: Patriarch Eraclius, P.200.

(٢) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص١١٠- ١١١.

(٣) Kedar: Op.Cit., P.200.

(٤) ذيل وليم الصوري، ص١١١.

(٥) L'Estoire d'Eracles, Tom II, PP.23, 56; Ernoul: Op.Cit. PP. 214- 215.

بشدة، وعدّه عرضاً انهزامياً، وقام بعرض وتذكير القراء بالبطاركة الذين دافعوا عن المدينة المقدسة في السابق، وذكرهم بالكثير من الأسى[١].

على أية حال، فقد كان لكلمات البطريرك وقع الهدوء والسكينة على جميع الثائرين، فاستجابوا لحديث هرقل واستمعوا لصوت العقل، والتمسوا من باليان الإبليني أن يمضي إلى صلاح الدين للتوصل معه إلى اتفاق، ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب ذيل وليم الصوري :" بأن الرعاع الذين استولي عليهم الجبن واستبد بهم الخوف هرعوا إلي البطريرك هرقل والملكة سيبيلا يسألونهما أن يعجلا بالاتفاق مع السلطان صلاح الدين وتسليم المدينة" [٢]. ومهما يكن من الأمر، فقد نجحت القوات الإسلامية في رفع راياتها فوق أسوار المدينة المقدسة، وقد دارت بينهما حوارات كلامية حفظتها لنا المصادر الإسلامية والصليبية[٣].

واصل البطريرك هرقل وباليان المحادثات والمساومات على الأموال المطلوبة مقابل السماح لأهل القدس بالرحيل عن المدينة، وعمل هرقل على استدعاء كبار رجال المدينة للتباحث في كيفية توفير الأموال المطلوبة؛ لدفعها كفدية مقابل الخروج الآمن لهم من القدس[٤]. ومن أجل نفس الغاية تمكن هرقل وباليان من إقناع الاسبتارية في المدينة أن يضعوا الأموال التي أرسلها الملك الإنجليزي هنري الثاني[٥]، والتي تقدر بثلاثين ألف بيزنط؛ لدفعها كفدية لحوالي سبعة آلاف من فقراء المدينة المقدسة ومعدميها[٦].

---

(١) Grousset , Histoire de Crousades, TomII, P.811.

(٢) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج١، ص٤٣.

(٣) عن هذه المحادثات انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٥٧؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص٩٢. ٩٦ ؛ المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص١١١- ١١٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٥٦؛ المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص١١٥.

(٥) كانت هذه الأموال موقوفة للصرف علي الحملات الصليبية؛ وذلك تكفيراً عما ارتكبه الملك الإنجليزي من جرم في قضية اغتيال رئيس أساقفة كانتربيري توماس بيكيت. انظر

Mayer: Henry II of England and the Holy Land, P.48.

(٦) المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص١١٥؛

Kedar: Op.Cit., PP.200- 201.

ومن أجل الحصول على أكبر قدر من المال من القادرين الذين يبخلون عن تقديم الأموال لجأ البطريرك هرقل وباليان إلى تعيين رجلين في كل شارع من شوارع المدينة؛ لجعل كل مواطن يقسم عما يمتلكه من ثروة، وذلك لكي يتمكنوا من تحديد العدد الفعلي للمواطنين المحتاجين للمساعدة. ومن خلال هذه الخطة البارعة تم استخدام الفائض الذي أخذ من القادرين الذين كان سيتم إعتاقهم بمساعدة الأموال الإنجليزية، وتم استخدامها في شراء الحرية لآخرين لم يكن في استطاعتهم دفع الفدية المقررة عليهم[١].

وعلى الجانب الآخر، فقد وافق السلطان صلاح الدين على تخفيض الفدية حتى يفيد منها أكبر قدر من المحتاجين غير القادرين، حتى تم الاتفاق على أن يدفع كل قادر من الرجال عشر بيزنتات. والمرأة خمسة والطفل بيزنتاً واحداً. وأن يحملوا معهم كل مالهم. وما يبيعود وما يرهنود ثم يخرجوا آمنين من غير ضرر يلحقهم أو أذى يصيبهم[٢]. وتأكيداً للاتفاق فقد قام صلاح الدين بوضع رقابة صارمة لحراسة شوارع القدس ليلاً ونهاراً ، حتى أنه لم تسجل أية حادثة أصابت أحداً من الصليبيين الذين تتابع خروجهم من المدينة[٣].

وعلى الرغم من كرم وتسامح صلاح الدين، فقد كان البطريرك هرقل وباليان الابلينى يحدوهما الأمل في عطف صلاح الدين للسماح للمزيد من الفقراء الباقين في المدينة والذين قدر عددهم بأحد عشر ألفا، فقد سمح بإطلاق سراح ألفين نظير توسلاتهما، حتى وصل الأمر بأن عرض البطريرك وباليان أنفسهما كرهائن لدى صلاح الدين. فرفض صلاح الدين قائلا: "لا أستطيع القبض على رجلين مقابل أحد عشر ألفاً، وأنه لن يبحث هذا الأمر بعد ذلك"[٤].

---

(١) المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص١١٥؛ ابن الأثير: الكامل ، ج١٠، ص١٥٧- ١٥٨؛
Kedar:Op.Cit. P.201

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٥٧- ١٥٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٩٥- ٩٦؛ المؤرخ المجهول: ذيل وليم الصوري، ص١١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٥٨؛ ذيل وليم الصوري، ص١٢١. ستانلي لين بول: صلاح الدين

وعلي الرغم من ذلك كله فقد ظل أربعة عشر ألف شخص لم يجدوا الفداء فأقاموا في رق العبودية[١].

بدأت أفواج الصليبيين الذين تم افتداؤهم الخروج من المدينة المقدسة في ثلاث مجموعات. اختار البطريرك وباليان أن يقودا المجموعة الأخيرة منها؛ وذلك ليكتسبوا فرصة أكبر في محاولة إقناع صلاح الدين وإدرار عاطفته لإطلاق سراح المتبقين من الأسرى. ولكن ضاعت جهودهما هباءً ، فقد رفض صلاح الدين مطلبهما تماماً وتمسك بالرفض[٢].وعلي الرغم من الدور الكبير الذي لعبه هرقل سواء في الدفاع عن المدينة المقدسة ، أو في عملية التفاوض مع صلاح الدين من أجل رحيل عدم القادرين عن المدينة المقدسة، فإن هناك رواية تشكك فيما قام به، فقد ذكر المؤرخ ستانلي لينبول[٣] أن هرقل حمل معه كنوز الكنائس والأقداح الذهبية والبلور المطعم بالذهب حتى الصحن الذهبي الخاص بالقبر المقدس، زيادة علي كمية كبيرة من حاجاته التي كان من الأفضل استعمالها في سداد قيمة الفدية عن فقراء المدينة. وقد سبق البطريرك الآخرين بدفعه العشرة قطع الذهبية وأخذ منهوباته وترك المدينة. وهذا القول مغاير للواقع الذي ذكر أن البطريرك لم يبخل لا بما امتلكه في كنيسة القبر المقدس من أموال وذهب وفضه، سواء في الدفاع عن المدينة أو في فداء الفقراء. كما لم يبخل بجهد في هذا الشأن، وكان ضمن آخر دفعة خرجت من القدس .

وقد تحدثت الروايات التي ذكرها المؤرخ أرنول وهو صديق باليان الأبليني عن أحداث سنة ١١٨٧م مدافعاً عن صديقه ضد الاتهامات التي وجهت إليه بأنه ترك الآلاف من الصليبيين للعبودية الإسلامية، فمن الواضح أن إشاراته المتكررة لكل من البطريرك هرقل وباليان تدل ضمناً بأن باليان كان يعمل وفقاً لسلطة البطريرك هرقل الأخلاقية، وهذا يعني أن

أرنول تخلي عن تصويره القاسي لشخص هرقل وأخلاقه التي ظهرت في فصول كتابه الأولى منذ انتخابه سنة ١١٨٠م[١].

وبعد تلك الجهود التي قام بها البطريرك هرقل وباليان يمكن القول إن الممتلكات الكنسية في الأراضي المقدسة فقدت جميع ما حازته من أراضٍ وعقارات [٢]، وذلك من أجل تقليص أعداد الأسرى الذين سيبقون في مدينة القدس، وبالرغم من ذلك وجهت انتقادات للبطريرك هرقل بأنه ترك بعض الأغراض المقدسة في كنيسة القيامة، دون استخدامها في إعتاق المزيد من الأسري، خاصة وأنه يعلم أنه سيخلي الكنيسة للمسلمين، لكن رأي البعض أن هرقل لم يكن ميالاً للرحيل بتلك الأثاثات أو بيعها أو حتى تحطيمها بيده؛ لأن تدينه والوقار الديني لتلك الأغراض المقدسة هو الذي دفعه إلي ذلك[٣].

ـ نشاط هرقل بعد خروجه من القدس حتى وفاته:

رحل الصليبيون المقيمون في بيت المقدس يوم الجمعة الثاني من أكتوبر ١١٨٧م، وامتلأت المدينة المقدسة بالمسلمين الذين جاءوا لزيارتها " من كل فج عميق وسلكوا إليه في كل طريق"[٤]. وتحول قصر البطريرك هرقل إلي مدرسة للصوفية، كما أقام العلماء والفقهاء المسلمون في منازل القساوسة ورجال الدين[٥]. واتجه البطريرك هرقل إلي الساحل الشامي حيث الممتلكات التي كانت لا تزال بأيدي الصليبيين هناك في صور وأنطاكية أو إلي أوربا عن طريق تلك الموانى[٦]، وعلي الرغم من قلة المعلومات التي تناولت نشاط هرقل في بلاد الشام، فإنه ربما يكون قد شارك في صيف ١١٨٨م، في الاجتماع الذي عقده كهنة مملكة

---

(١) Kedar: Op.Cit., P.201.

(٢) سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس،ص ٣٢٦.

(٣) Kedar: Op.Cit., P.202.

(٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ت. وشرح محمد محمود صبح، تقديم: حامد زيان،الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط.القاهرة، ٢٠٠٣م.، ص١٣٤؛ لين بول: المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٥) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين،ج٢،ص٩٦.

(٦) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة،ج١،ص٢٣.

بيت المقدس؛ وذلك بهدف إعفاء الملك الصليبي السابق لبيت المقدس جاي لوزجنيان، من القسم الذي أعطاه لصلاح الدين عقب وقوعه في الأسر في معركة حطين الشهيرة. وقرر البطريرك مساندة جاي لوزجنيان الذي مُنع من دخول مدينة صور بواسطة كونراد دي منتفرات[١]،ولذلك حث هرقل جاي علي ضرورة التوجه فوراً لحصار عكا واقتحامها، وذلك بعد فشل حملة الإمبراطور فردريك الأول وغرقه في أحد أنهار قليقية بآسيا الصغري عام ١١٨٩م[٢]، ووقف البطريرك إلي جانب المحاصرين لعكا وتحت أسوارها كانت خطبه الرنانة تحفز الجند علي التماسك وضرورة تصحيح الأوضاع، وذكر أنه عرض نفسه للأخطار أكثر من مرة خارج أسوار عكا[٣].

مهما يكن من أمر ، فقد أحكمت القوات الصليبية حصار عكا من جميع الجهات، وتحرك لوزجنيان إلي شمال المدينة مع بعض قواته لقيادة العمليات الحربية هناك[٤]، بينما بقي البطريرك هرقل مع أساقفة عكا وبيت لحم والعديد من النبلاء في جنوب المدينة ينظمون حركة الجند، ويذكر أن هرقل اعتاد مباركة الجند المشاركين في حصار المدينة، لكنه اضطر إلي الاعتدال في تحفيز الجنود، بعدما اكتشف أن الإفراط في التحفيز ربما يؤدي إلي كارثة، وهو ما حدث بالفعل عندما هدد باستخدام قرار الحرمان الكنسي ضد المتقاعسين في بعض الهجمات علي أسوار مدينة عكا في سنة ١١٩٠م؛ الأمر الذي جعل الكثير من الجنود

---

(١) كونراد هو ابن وليم الثالث دي منتفرات الذي وقع أسيرا في يد صلاح الدين، وكان كونراد قد وصل إلي عكا صيف ١١٨٧م قادماً من الغرب عبر القسطنطينية ، ثم توجه إلي صور حيث بث وصوله في الصليبين روحاً جديدة دفعتهم للمقاومة والثبات، وقاد كونراد حركة المقاومة هناك . للمزيد انظر، L'Estoire d'Eracles: Tom, II,PP. 75- 76; المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج١، ص٨٠- ٨١؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص ٦٥٩- ٦٦٨.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٢،ص١٥٠؛ المؤرخ المجهول: المصدر السابق،ج١،ص ٨٠- ٨١.

(٣) Kedar: Patriarch Eraclius, P.203.

(٤) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة،ج١،ص ١٠٥- ١٠٨.

ينطلقون بشكل غير مدروس، وكاد الأمر أن ينتهي بكارثة محققة، ويعد هذا التهديد باستخدام قرار الحرمان الكنسي هو آخر قرار عملي قام به البطريرك هرقل[١].

علي أية حال، ففي خريف سنة ١١٩٠م مرض البطريرك مرضاً شديداً، وبدأت صحته تتدهور يوماً بعد يوم، ومع انزوائه أخذت مكانته تتراجع وتتلاشى، وتمكن من جسده، وفي أواخر سنة ١١٩٠م اشتد عليه المرض ولفظ أنفاسه الأخيرة في عكا، وله من العمر ستون عاماً، وانطوت بذلك صفحة آخر بطاركة بيت المقدس من اللاتين[٢].

---

(١) Kedar: Op. Cit., P. 203.

(٢) L'Estoire d'Eracles, P. 152; Ernoul: Op. Cit. 267, Edbury: 'William of Tyre and the Patriarchal Elections' PP. 14– 15.

ـ خاتمة:

خلص البحث بصفة عامة إلي عدة نتائج يمكن إجمالها علي النحو التالي:

ـ أولا: جاءت تولية هرقل بطريركية بيت المقدس، في وقت كانت المملكة الصليبية تمر بمرحلة من التدهور والانحلال الداخلي والاقتسام والتحزب، الذي عجل بانهيارها والذي تمثل في زيادة سلطة الأحزاب المتصارعة علي السلطة في المملكة، ويأتي علي رأسها حزب البارونات الوطنيين، وحزب القادمين الجدد من الغرب الأوربي، وقد حظي كل حزب بدعم بعض الأعيان والهيئات، والواقع أن البطريرك هرقل دخل طرفاً في هذا الصراع، حيث انضم إلي حزب القادمين الجدد، والذي كان يتزعمه الكونتيسة آجنيس وأخوها جوسلين الثالث وريتو دي شاتيون (أرناط)، بالإضافة إلي هيئة فرسان الداوية.

ـ ثانياً: أن التهم الأخلاقية لرجال الدين لم تكن حديثة العهد في عهد البطريرك هرقل لكنها تبدو من خلال الدراسة أنها كانت منتشرة بشكل أقلق البابوية نفسها في تلك الفترة.فقد وجهت عدة تهم مماثلة إلي عدة بطاركة سابقين لعهد هرقل نذكر منهم علي سبيل المثال، البطريرك أرنولف مالكورن، لكن التهم التي وجهت للبطريرك هرقل بأنه علي علاقة غير أخلاقية بالكونتيسة آجنيس لا يمكن قبولها، حيث وردت هذه التهم علي لسان المؤرخين الكارهين للكونتيسة من جهة والحاقدين علي هرقل من جهة أخري. ويكفي أن نشير أن مؤرخ المملكة الصليبية وليم الصوري لم يشر من قريب ولا من بعيد إلي تلك العلاقة، وربما تكون هذه التهمة مجرد ثرثرة خبيثة وجهت للكونتيسة آجنيس، كذلك رواية مؤرخ ذيل وليم الصوري عن وجود عشيقة للبطريرك رواية يمكن التشكيك فيها أيضا.

ـ ثالثاً: المبالغة الشديدة في اتهام البطريرك هرقل بالجهل وسوء الأخلاق والبلادة وتحجر القلب وعديم النشاط وغيرها من التهم كان مبالغاً فيها، بل ووضح من خلال الدراسة أنه عكس ذلك تماماً، لكن جاءت هذه التهم من منطلق سياسي حزبي بحت من أجل الحط من قدر قمة الهرم الديني في المملكة، وهذا بالطبع له مردود سيء لدي العامة والخاصة لكراهية حزب الأسرة الحاكمة التي اختارت هرقل بطريركا وأحد أركان حزبها.

ـ رابعاً: أظهرت الدراسة أن هرقل كان علي عكس كل الصفات التي نعت بها، فقد تمكن من إدارة شئون البطريركية باقتدار، وتمكن من جعل كنيسة بيت المقدس هي التي ترعى جميع الكنائس اللاتينية بالشرق الصليبي، نذكر منها: نجاحه في إدارة عدة أزمات تعرضت لها مملكة بيت المقدس في تلك الفترة، ويأتي في مقدمة هذه المسائل ترأسه للبعثة الملكية إلى مدينة أنطاكية سنة ١١٨١م؛ بهدف التوسط بين أمير أنطاكية بوهيموند الثالث وبطريركها إيميرى من ليموج، وذلك بسبب زواج بوهيموند المخالف لقواعد الكنيسة، ونجح هرقل في تسوية المسألة بينهما.

ومن الجوانب المهمة أيضاً، والتي أثبت فيها جدارته وحرصه علي أملاك الكنيسة اللاتينية عندما نجح في استعادة الكثير من الآثار الدينية المقدسة التي فقدتها كنيسة القبر المقدس في العهود الماضية؛ وذلك مقابل جزء من الصليب المقدس كان قد أرسل للغرب الأوربي في وقت سابق لتولي هرقل البطريركية؛ ليكون مزاراً بديلاً للمسيحيين الفقراء غير القادرين للحج للأراضي المقدسة.

ومن الأمور المهمة أيضا، والتي حقق فيها نجاحا ملموساً توطيده لعلاقات الصداقة مع البابوية التي جعلته مبعوثاً لها لحل بعض المشاكل الكنسية في الشرق اللاتيني.

ـ خامساً: تميز نشاط هرقل الخارجي في مشاركته ورئاسته لبعثات المملكة للغرب الأوربي بالنشاط، والتأثير في مستمعيه، وذلك لما امتلكه من بلاغة وخطابة ورباطة جأش، وهنا نذكر رئاسته لبعثة ١١٨٤م ، عندما تقابل مع عواهل أوربا ، وشرح لهم مدى ما تعانيه المملكة اللاتينية من أخطار، وأنها بحاجة إلي شخص قبل الأموال، وهذا دليل علي رغبته في بث روح الحياة في المملكة من جديد عندما ترتبط بأحد ملوك أوربا الأقوياء بدلاً من الملك بلدوين الرابع المريض.

ـ سادساً: لعب البطريرك هرقل دوراً كبيراً في عملية الدفاع عن القدس أثناء حصار صلاح الدين لها، فقد بذل الغالي والنفيس من أجل هذا الهدف، ولكنه عندما أيقن عدم جدوى المقاومة؛

لقلة الإمكانات وندرة المساعدات وشدة بأس العدو، رأي في المفاوضات . من أجل تسليم المدينة . الرأي الأصوب؛ لحماية الأرواح، وصيانة النساء والأطفال.

- سابعا: إن عملية المفاوضات أكدتها كثير من المصادر، والتي دلت علي أن شخصية هرقل كانت حريصة علي أرواح الصليبيين، فلقد أدار الأزمة بشكل جيد. ولم يمنعه واجبه الديني من التوسل لصلاح الدين مرة تلو المرة من أجل عدم بقاء أحد من غير القادرين علي دفع الفدية، حتى أنه ضحّى بنفسه بالبقاء في يد صلاح الدين هو وباليان الابليني مقابل الإفراج عن جميع من بالمدينة من الصليبيين.

وأخيراً، هذا جهدي المتواضع فإن أصبت فمن الله، وإن كانت الأخرى فمن نفسي،

والله ولي التوفيق،

الباحث

قائمة المصادر والمراجع.

أولاً ـ المصادر الأجنبية:

- Anonymi Rhenani, Historia et Gesta Ducius Gotfridi, Sel, Historia Du Obsidione Terre Sancte, Anno MXCVI, R.H.C., Occ., T. V, Seconde Partie, Imperimerie Nationale. (Paris M DCCCXCV).

- Begount: Le Livere Au Rois, In R.H.c.occ., Lois,

- Chronique de Michel Le Syrian, Patriarche Jacobite Antioche (1166- 1199) ed, and Trans, Chabot (J.B.) Tom III, (Paris 1905)

- Ernoul, Le Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier, (ed.) Mas Latrie, (Paris 1871).

- Lois, Les Assises de Jerusalem, 2 Vols. (Paris 1841-1843).

- L'Estoire d'Eracles et La Conquest de la Terre d'Outremer, RHC. Occ. Tom. II, (Paris 1859).

- Radulph of Diceto: Opera Historica (ed. By Stubbs), Rolls Series, (London, 1876).

ـ ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م):الكامل في التاريخ، مراجعة الدكتور محمد يوسف الدقاق. المجلد العاشر،ط٤. دار الكتب العلمية بيروت، (٢٠٠٣م).

-البنداري (الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني ت٦٢٢هـ/١٣٢٥م): سنا البرق الشامي(هو اختصار البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني)، تحقيق فتحية النبراوي. مكتبة الخانجي. ط.(القاهرة، ١٩٧٩م).

-ابن جبير (محمد بن أحمد ت ٦١٤ أو ٦١٦هـ/١٢١٧ أو ١٢١٩م): الرحلة. الهيئة العامة لقصور الثقافة . ط.(القاهرة، ١٩٩٨م).

-أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت٦٦٥هـ/١٢٦٨م): الروضتين في أخبار الدولتين، رواية الشيخ الإمام مجد الدين أبي المظفر يوسف،الجزء الثاني. مطبعة وادي النيل. القاهرة (١٢٨٨هـ)

-ابن شداد (بهاء الدين المعروف بابن شداد ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م): سيرة صلاح الدين المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال. ط.(القاهرة، ١٩٦٤م).

-العماد الكاتب الأصفهاني (محمد بن محمد ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، تقديم: حامد زيان غانم. الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط.(القاهرة، ٢٠٠٣م).

-ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م): ذيل تاريخ دمشق، نشره ووضع فهارسه وقدم له هـ.ف. ط.آمدروز،(ليدن، ١٩٠٨م).

-ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي البغدادي: معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

ثالثاً ـ المصادر المعربة:

- أتو أسقف فريزنج: ما ورد عنه في الحروب الصليبية، ت سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج٢٨، (دمشق، ١٩٩٧م)

- بنيامين التطيلي (القرن ١٢م/٦هـ): الرحلة، ت. عزرا حداد، تقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المجمع الثقافي، ط.(أبو طبي، ٢٠٠٢م).

- بورشارد: وصف الأرض المقدسة، ت. سعيد البيشاوي، ط.(عمان، ١٩٩٥م).

- ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة، ت. سعيد البيشاوي، ط.(عمان، ١٩٩٥م).

- دانيال الروسي: وصف الأرض المقدسة في فلسطين(١١٠٦-١١٠٧م)، ت. وتعليق: سعيد البيشاوي وداود إسماعيل أبو هدبة، دار الشروق، ط.(عمان، ٢٠٠٣م).

ـ ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ت. حسين عطية،دار المعرفة الجامعية،ط إسكندرية(١٩٨٩م)

- مؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ت. حسن حبشي(القاهرة، ١٩٥٨م)

- مؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة،(صلاح الدين وريتشارد) ت. وتعليق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب(٢٠٠٠م)، ج١.

- مؤرخ مجهول: ذيل وليم الصوري، ت.حسن حبشي، الهيئة العامة للكتاب، ط.(القاهرة، ٢٠٠٢م).

- ناصر خسرو (ناصر خسرو علوي ت ٤٨١هـ/١٠٥٨م): سفر نامه، ت. يحيى الخشاب، ط.(القاهرة، ١٩٤٥م).

- وليم الصوري: الحروب الصليبية، ت.: حسن حبشي، ٤ أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط.(القاهرة، ١٩٩١-١٩٩٥م).

- ويندوفر (روجر أوف): ورود التاريخ، ضمن كتاب الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ت. سهيل زكار، ج٣٩ ، ط.دمشق، (٢٠٠٠م).

- يوحنا فورزبرج: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ت. سعيد البيشاوي، دار الشروق، ط.(عمان، ١٩٩٧م).

رابعاً ـ المراجع الأجنبية:

- Archer (T.A.) and Charles L. Kingsford, the Crusades "The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, New York, G.P. Putnam's Sons, (London 1904).

- Aube Pierre, Baudouin IV de Jérusalem, Le Roi Le Preux, (Paris 1981).

- Baldwin, M.W., "The Decline and fall of Jerusalem, 1174–1189", (ed.) Setton, vol.I.

----: Raymond III of Tripolis, Amsterdam, Adolf M. Hakkert – Publisher, 1969.

- Barker D., "Women in the Crusader States: The Queens of Jerusalem 1100-1190)", In: Crusaders, Cathars and the Holy Places, ed. By Hamilton P., Ashgate Publishing 2000.

- Cahen, C., La Syrie du Nord á L'époque des Croisades et la Principauté Franque d'Antioche, Institut Français de Damas, Bibliothèque Orientale, I, (Paris 1940).

- Cazel (F.A.): "The Tax of 1185 in Aid of the Holy land" in Speculum, Vol 30,

- Conder (G.R.), The Latin Kingdom of Jerusalem, (London 1897).

- Edbury, Peter W., and Rowe J.G.,"William of Tyre and the Patriarchal Election of 1180", in EHR., vol.93, no.366, (1978).

--"William of Tyre, A Historian of the Crusades and the Kingdom of Jerusalem (1130-1184)", in Bulletin of the Faculty of Arts in Alexandria University, (1988).

--The Conquest of Jerusalem and the Third Crusade 'Sources in Translation', Ashgate, (Cardiff 1998).

--"John of Ibelin and the Kingdom of Jerusalem" , in: J. R. A. S., Third Series, vol., 9, Part 1, April 1999, (Cambridge University Press 1999).

--"The Titular Nobility of The Latin East: The Case of Agnes of Courtenay" in: Crusaders, Cathars and the Holy Places, (ed.) by: Bernard Hamilton, Ashgate, (London 2000).

- Gibb, .H.A., "The Rise of Saladin (1169-1189) in Setton: The History of the Crusades vol. I, (Phladelphia, 1945)

- Grousset R., Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, 3 vols. (Paris 1934-6).

- Hamilton, B.: The Latin Church in the Crusaders States, (London, 1980).

------: "Miles of Plancy and the Fief of Beirut", In: Crusaders, Cathars and the Holy Places, ed. (Ashgate Publishing 2000).

------: The Leper King and His Heirs, Baldwin IV and the Crusader Kingdom of Jerusalem, (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).

- Hume: Medical Work of the Knights Hospitallers Of sant John of Jerusalem, Insitute of the History of Medicine of the John Hopkins University (1940)

- Hutton: Phili Augustus, (London 1896).

- Kaegi (W.): Heraclus Emperor of Byzantium, (Cambridge 2002).

- Kedar B. Z.: "The Patriarch Eraclius" in Outermer Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem 1982.

--The General Tax of 1183 in the Crusading Kingdom of Jerusalem: Innovation or Adaptation? ", in: EHR , 89, (London 1974).

- Kelly (J.N.D.): Dictionary of Popes, (New York 1996).

- King, E. J.: The Knights Hospitallers in the Holy Land, (London, Methuen 1931).

- Krey (A.C.): "William of Tyre: The Making of an Historian in middle Ages", Speculum, Vol. 16, No. 2 (Apr., 1941).

- Lamb (H.): The Crusade The Flame of Islam, (New York 1931).

- La Monte, J.L, Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, Cambridge, The Mediaeval Academy of America, (1932, reprint: New York, Kraus 1970).

- Mayer, H.E.: "Henry II of England and the Holy Land", in HER., vol. 97, (1982).

----:"The Beginning of King Amalric of Jerusalem", in the Horns of Hattin (Yad Izhak Ben Zvi and Variorum 1992).

- Moore (W.G): The Penguin Encyclopedia of Places, (London 1978), pp.65-66.

- Riley-Smith (G.): The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174-1277 (London 1973).

- Schlumberger (G.): Renaud de Chatillon, Prince d' Antioche, seigneur de la terre d'outre-Jourdain, Librairie Plon, (Paris 1923).

- Sidney Painter, "The Houses of Lusignan and Chatellerault 1150-1250", Speculum, vol. 30, No. 3 (Jul., 1955).

- Smail, R.C.,"Crusaders' Castles of the Twelfth Century", in CHJ., 10, (1951).

--"The Predicaments of Guy of Lusignan, 1183-1187, in: Outremer,

- Stevenson (W. B.), The Crusaders in the East, (Cambridge 1907)

- Tyerman Christopher: England and the Crusades 1095-1588, University of Chicago Press, Chicago and London 2004.

- Wiruszowski: "The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades", (ed.) Setton: History of the Crusades, vol.2.

- Zenab El Gothamy and Abdalla M. Atti: "Leprosy ", in Fundamentals of Dermatology, Andrology, Sexology and Sexually Transmitted Diseases, Cairo, 2004.

خامساً ـ المراجع العربية:

ـ أسامة زكي زيد (دكتور): ملكات بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري). مجلة كلية الآداب– جامعة طنطا. العدد الثامن. (يناير ١٩٩٥).

. السيد الباز العريني (دكتور): مؤرخو الحروب الصليبية. ط١. القاهرة. (١٩٦٢م).

ـ جمعة محمد مصطفى الجندي (دكتور): الاستيطان الصليبي في فلسطين (٤٩٢-٦٩٠هـ/ ١٠٩٩-١٢٩١م) . مكتبة الأنجلو المصرية ط.(القاهرة. ٢٠٠٦م).

ـ رأفت عبد الحميد (دكتور): "السمو البابوي بين النظرية والتطبيق". ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط. المجلد الثالث. دار المعارف. ط.(القاهرة. ١٩٨٥م).

ـ زينب عبد القوي (دكتور): الإنجليز والحروب الصليبية (١١٨٩-١٢٩١م). عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ط.(القاهرة. ١٩٩٦م).

ـ سعيد عبد الله جبريل البيشاوي (دكتور): الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م/٤٩٢-٦٩٠هـ) تقديم: محمود سعيد عمران. دار المعرفة الجامعية. ط.(الإسكندرية. ١٩٨٩م).

ـ نابلس. الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية. ط.(عمان. ١٩٩١م).

. سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور): الناصر صلاح الدين، أعلام العرب، (القاهرة، ١٩٦٥).

ـ الحركة الصليبية،صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى مكتبة الأنجلو المصرية. جزئان. ط.(القاهرة. ١٩٨٢م).

. أوربا العصور الوسطى " التاريخ السياسي". مكتبة الأنجلو المصرية، ط.(القاهرة، ١٩٩٤م).

ـ عادل عبد الحافظ حمزة (دكتور): الحرمان الكنسي في العصور الوسطى حتى نهاية النصف الأول من القرن ١٣م" . مجلة جامعة حلوان. كلية الآداب. العدد الخامس، يناير (١٩٩٩م).

– عبد الحفيظ محمد علي (دكتور): مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية "١١٣١-١١٨٧م". دار النهضة العربية، ط.(القاهرة ١٩٨٤م).

- عمر كمال توفيق (دكتور): المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، عدد ٢١، سنة (١٩٦٧م).

- محمد مؤنس أحمد عوض (دكتور): الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. (القاهرة، ١٩٩٢م).

- النقد الاجتماعي للصليبيين والمسلمين من خلال كتابات وليم الصوري (ت ١١٨٦م)وأبو شامة المقدسي (ت ١٢٦٨م) دراسة مقارنة، بحث مقدم لمؤتمر إتحاد المؤرخين العرب (القاهرة، ٢٠٠٧م).

. مصطفي مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ١٠أجزاء، ط.بيروت (١٩٦٥-١٩٧٦م).

. مكسيموس وصفي: "خميس العهد روحياً عقيدياً طقسياً" اليوم الخامس من الشعانين

ـ وسام كبكت: "كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك" ضمن مجلد تاريخ الكنيسة ، م٢، ط١، دار المشرق، (بيروت، ١٩٩٧م).

سادسا . المراجع المعربة:

ـ بالار (ميشيل): الحملات الصليبية والشرق اللاتيني . ت.بشير السباعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط.(القاهرة، ٢٠٠٣م).

. براور (يوشع):عالم الصليبيين، ت. قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة، ط.(القاهرة، ١٩٩٩م).

ـ جوناثان (ريلي- سميث): الإستبارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص (١٠٥٠-١٣١٠م)، ت.صبحي الجابي، ط.(دمشق، ١٩٨٤م).

ـ الحملة الصليبية الأولي وفكرة الحروب الصليبية، ت محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، (القاهرة، ١٩٩٩م)

ـ رانسمان (ستيفن): تاريخ الحملات الصليبية، الجزء الثاني ت. نور الدين خليل، مكتبة الشروق، (القاهرة، ١٩٩٩م).

. الحضارة البيزنطية، ت عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة، ١٩٦١م).

ـ سمايل (بيرل): المؤرخون في العصور الوسطى، ت.قاسم عبده قاسم، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٨٤م).

ـ لين بول(ستانلي): صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس، ت. فاروق سعد جابر. ١٠ (القاهرة، ١٩٩٥م)

. ماير (هانز): تاريخ الحملات الصليبية، ت.محمد فتحي الشاعر، ط.(القاهرة ١٩٩٩م).

. الاستيطان الصليبي في مملكة بيت المقدس، ت. عبد الحافظ البنا، ط.(القاهرة، ٢٠٠١م).

ـ مولر ولفونج وينر(دكتور): القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلاد. ط دمشق، (١٩٨٤م).

ـ هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت. أحمد محمد رضا. مراجعة وتقديم عزالدين فوده. أربعة أجزاء. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط.(القاهرة، ١٩٨٥م).